قصة
حيّ بن يقظان
ومزاعم تأثير الشيطان
عند الإمام الناصر أحمد بن الهادي
المتوفى سنة ٣١٥ هـ
جمال الشامي

قصة
حي بن يقظان

ومزاعم تأثير الشيطان

عند الإمام الناصر أحمد بن الهادي

المتوفى سنة ٣١٥ هـ

جمال الشامي

النسخة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

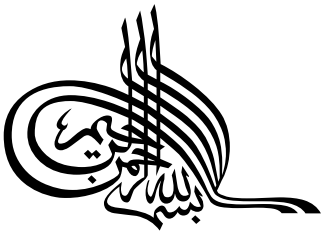
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله الطاهرين.

وبعد:

عندما نتحدث عن قصة حي بن يقظان، نغوص في واحدة من أعمق القصص الرمزية التي عبرت عن فلسفة الإنسان، وتحدياته، ورحلته نحو المعرفة والكمال، تعد هذه القصة التي تعبر عن تطور فرد يتيه في الطبيعة ويكتشف نفسه والعالم والروحانيات، واحدة من أبدع القصص في التراث العربي الإسلامي، وقد تناولها العديد من العلماء والمفكرين من زوايا مختلفة، محاولين فهم أبعادها الفلسفية والمعرفية والروحانية.

بدأت الحكاية تأخذ شكلها الكامل في مؤلفات الفلاسفة المسلمين، ولا سيما في تفسير علاقة الإنسان بالكون والإله والمعرفة، وقد تنوعت تفسيرات العلماء حول دلالات هذه القصة، حيث رأى بعضهم أنها تمثل بحث الإنسان عن المعرفة الإلهية، فيما اعتبر آخرون أن القصة تصور عزلة الإنسان عن المجتمع كطريق للوصول إلى الحقيقة.

لكن ما يجعل هذه النسخة من القصة فريدة هو تناول الإمام الناصر أحمد بن الهادي – المتوفى سنة ٣١٥هـ – لها بقراءة خاصة ومتميزة، ترتكز على ضعف قدرات الشيطان على الإنسان في مجال الوسوسة والإضلال، مما يعكس رؤية إسلامية متقدمة لقوة الإنسان في مواجهة التحديات الروحية، وهذا ما جعل فلاسفة أوربا في عصر النهضة يتلقفون مضمونها ويولونه كل عنايتهم كما قال الأستاذ الدكتور إمام حنفي، والقائل أيضاً: «ومن ينظر مقارناً يلاحظ لأول

وهلة ويجد أن فكر المسلمين الأوائل الحر، والذي يقوم على الكتاب والسنة المتواترة ومنهج العقل، بعيداً عن الغموض الفلسفي من جهة، والانحراف الأسطوري والخرافة من جهة أخرى، هو أساس البناء المنهجي الذي قام به زعماء الفكر الغربي بداية من المنهج الديكارتي والتجريبية عند كوبر نيكس وكانت، والمنهج الاستقرائي والبرجماتية عند جون لوك وجون ستيوارت مل.. ثم ظهور العقد الاجتماعي والعدالة الاجتماعية، وإرساء قواعد الدستور والديمقراطية والنظم التعددية.. كل ذلك خرج من عباءة الفكر الإسلامي الناضج في البدايات»(١).

بالإضافة إلى أسبقية الإمام الناصر في التأليف في هذا الجانب - أي قصة حي بن يقظان -، فقد توفي قبل مولد ابن سينا بخمسة وخمسون عاماً، وقد كان الشائع إرجاع الأسبقية إليه في التأليف، وفي هذا الكتاب، يوضح الإمام الناصر أحمد كيف أن الشيطان، رغم محاولاته المستمرة لإغواء الإنسان، يبقى محدود القدرة وضعيفاً أمام إرادة الإنسان ووعيه واستنارته.

وقد رأيت كتابة مقدمة لهذا الكتاب تتضمن استعراضاً تاريخياً للقصة، تتبعت فيها القراءات المختلفة التي قدمها العلماء والفلاسفة، وصولاً إلى طرح الإمام الناصر أحمد بن الهادي، نستعرض أولاً تطور القصة وارتباطها بالفلسفة الإسلامية من خلال أعمال ابن سينا وابن طفيل وغيرهم، حيث مثلت "حي بن يقظان" رمزاً لعزلة الإنسان عن المجتمع وصولاً إلى الحقيقة، ثم ننتقل إلى تفسير الإمام الناصر الذي أعاد صياغة الحكاية بتركيز على دور الإرادة الإنسانية في التصدي للوسوسة، موضحاً كيف أن الشيطان، رغم مكره، لا يستطيع الإيقاع بالإنسان إذا ما تمسك الأخير بالإيمان والوعي.

---

(١) إبليس في التصور الإسلامي ص٢٦٦.

وبهذا، يقدم الإمام الناصر أحمد بن الهادي تفسيراً روحانياً عميقاً وملهماً، يستعرض فيها إيماناً قوياً بقدرة الإنسان على تحقيق النقاء والتغلب على الشر، ولتعزيز الفهم الروحي للقصة، ألحقت في الكتاب مبحثين عن السحر وحقيقته، والعين وأثرها، مع محاولة إعادة صياغة القصة بأسلوب جديد، أرجو التوفيق من الله والتسديد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

جمال الشامي

٢١ ذو الحجة ١٤٤٥هـ

٢٧ / ٦/ ٢٠٢٤م

المبحث الأول
حي بن يقظان في التاريخ الفلسفي

يعد اسم حي بن يقظان من المصطلحات الفلسفية التي ظهرت أول مرة مع ابن سينا، لكنه لم يكن مجرد تسمية عابرة، بل حمل في طياته دلالات فكرية عميقة، يهدف هذا المبحث إلى توضيح مفهوم هذه التسمية، وتتبع جذورها الفلسفية، وبيان مضمونها الفكري من خلال المطالب التالية.

المطلب الأول: التسمية:

الفرع الأول: المفهوم اللغوي:

التسمية تنقسم إلى كلمتين (حيّ) و(يقظان)، الحِيّ في اللغة: نقيض الميت، والحياة يستعمل على أَوجه:

الأول: القوة النامية: تظهر في النبات والحيوان، كما في الآية: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[الأنبياء:٣٠].

الثاني: القوة الحسية: تتجسد في الحيوانات، مثل الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى**﴾[فصلت:٣٩].

الثالث: القوة العاقلة: تعبر عن العقل والمعرفة، كما في الآية: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾[الأنعام:١٢٢].

الرابع: زوال الغم: بمعنى السعادة والراحة، كما في الآية: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ**﴾[آل عمران:١٦٩].

الخامس: الحياة الأخروية: وهي الحياة الأبدية، مثل: ﴿**يَقُولُ يَا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى**﴾[الفجر:٢٤].

السادس: حياة الله: تعني البقاء الدائم، وهي صفة خاصة بالله، تعني أنه لا يموت، كما في الآيات:﴿**هُوَ الْحَيُّ**﴾[البقرة:٢٥٥](١).

واليقظان في اللغة: نقيض النائم والحذر والمنتبه، يقال: رجل يقظ أي متقد حذر، ويقال: أيقظته من نومه أي نبهته، وقال تعالى: ﴿**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ**﴾[الكهف:١٨]، أي منتبهين.

فالحي في اللغة يمكن أن يستفاد منه بالكائن الموجود أو الشخص الذي يتمتع بالحياة والقدرة على التفاعل، ويقظان بالمنتبه غير الغافل الواعي لما حوله من ظروف.

الفرع الثاني: المفهوم المعنوي:

وهو المركب من (حي) و(يقظان) فيمكن أن يفهم منه الشخص الحي الذي نشأ من اليقظة أي الوعي والانتباه، بمعنى أن حياة الإنسان تبدأ عندما يستيقظ ويدرك ويتوصل إلى الحقيقة، فيكون حياً عند ذلك، فالمعنى يتجاوز مجرد الدلالة الحسية على الحياة، ليرتبط بمفهوم الحياة العقلية والروحية المرتبطة باليقظة الفكرية والتحرر من الجهل والغفلة.

المطلب الثاني: المضمون:

تعددت النسخ التي تناولت قصة حي بن يقظان، واختلفت مضامينها من مؤلف لآخر، حيث نجد نسخاً لابن وابن طفيل، وأخرى لابن النفيس بعنوان (فاضل بن ناطق)، كما ظهرت في الوسط الأوروبي بشكل مختلف لدى دانيال

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج٢ص٥١٢-٥١٣.

ديفو في روايته (روبنسون كروزر)، وسنكتفي بالإشارة إلى هذه النسخ في الفروع التالية:

الفرع الأول: ابن سينا – المتوفى سنة ٤٢٧هـ -:

مضمونها أنه كان في رحلة مع أصدقائه في منطقة تُدعى "برزة"، حيث صادفوا شيخاً وقوراً متقدماً في السن، حافظ على قوته وهيبته رغم مرور الزمن، انجذبوا إليه وشعروا برغبة في محادثته، فتوجهوا إليه، فاستقبلهم الشيخ بتحية لطيفة، وتبادلوا الأحاديث حتى بدأوا يسألونه عن اسمه وأصله وعمله، فعرف الشيخ نفسه بأنه "حي بن يقظان" من مدينة بيت المقدس، وأن مهنته التجوال في العالم لاكتساب المعرفة، واستمروا في طرح الأسئلة عليه في شتى العلوم، وأعجبوا بمهارته في علم الفراسة وقدرته على التحليل والتشخيص بشكل مدهش.

فهذه الرفقة ليست أشخاصاً وإنما هي الشهوات والغرائز والغضب وسائر الملكات الإنسانية، والمجادلة بين الرفقة والتحدث إلى حي بن يقظان هو عبار عن المجادلات التي تحدث عادة بين غرائز الإنسان وشهواته وضميره وعقله، فحي بن يقظان هنا شخصية رمزية تقوم على التجربة الذاتية والفكر التجريدي للوصول إلى الحقيقة، حيث يعيش حياة تأملية بعيدة عن المؤثرات الخارجية أو الحياة الاجتماعية(١).

الفرع الثاني: ابن طفيل – المتوفى سنة ٥٨١هـ -:

مضمونها أن حي بن يقظان طفل ولد في جزيرة معزولة دون والدين أو مجتمع، في إحدى الروايات، يُقال إنه وُلد طبيعياً وتُرك في جزيرة معزولة، وفي

(١) حي بن يقظان – النصوص الأربعة ص١٤١.

أخرى، يُعتقد أنه وُلد من رحم الأرض نفسها بقدرة إلهية، تُربيه ظبية وتعلمه ما يحتاجه للبقاء، مثل الأكل والشرب والتعامل مع الطبيعة، بمرور الوقت، ومع نضجه، يبدأ حي بالتأمل في مظاهر الطبيعة من حوله ويتساءل عن ماهية الأشياء ومعنى الحياة، يتدرج في فهم الكون من حوله من خلال الملاحظة والتجربة، ويدرك أن هناك خالقاً عظيماً وراء هذا الكون.

يتواصل حي مع الطبيعة ويطور أفكاراً فلسفية عميقة حول الوجود والمعرفة، ويصل إلى فهم كبير لمفاهيم روحانية وفلسفية دون أن يتلقى تعليماً أو يتواصل مع مجتمع بشري، وعندما يلتقي في النهاية بشخص يُدعى "أبسال" من مجتمع بشري قريب، يُدهش أبسال من فلسفة حي ونظرته الروحانية ويأخذه إلى البشر لنقل حكمته إليهم، ولكن سرعان ما يكتشف حي أن الناس ليسوا مستعدين لقبول الحقائق الفلسفية العميقة التي توصل إليها، فيقرر العودة إلى عزلته(١).

الفرع الثالث: السهروردي – المتوفى سنة ٦٣٢هـ –:

مضمونها أن حي بن يقظان سافر مع أخيه عاصم، حيث انطلقا من ديارهما للصيد ووُجِها إلى قرية قيروان، وهناك أُسرا وسُجنا في بئر مظلم، فيظهر هدهد يحمل رسالة إلهية توضح لهما طريق الخلاص، فيخرجان ويبحران في سفينة عبر بحر متلاطم الأمواج، فيصلان في النهاية إلى جبل الطور المقدس، حيث يقابل حي بن يقظان شيخًا منيرًا يرمز إلى الحكمة والنور الإلهي، يُخبره الشيخ أن رحلته لم تنتهِ بعد، وأن عليه العودة إلى العالم المادي، مع وعد بالوصول مجددًا للمقام

(١) حي بن يقظان ص١٧٠.

الروحي، ينتهي النص بتأمل حي بن يقظان في لذة الروح والنور، مع تسليم تام لله، ورغبة في التحرر التام من قيود الدنيا لتحقيق المعرفة الكلية(١).

الفرع الرابع: ابن النفيس – المتوفى سنة ٦٨٧هـ – :

مضمونها أن شخصاً يُدعى فاضل بن ناطق، نشأ في بيئة منعزلة وتعلم من خلال الطبيعة والملاحظة الذاتية مثل "حي بن يقظان"، وبدأ فاضل بالبحث عن الحقيقة من خلال العقل والتفكر في العالم من حوله، ولكنه لا يصل إلى الاكتمال المعرفي إلا عندما يتعرض لتعاليم الدين والوحي(٢).

الفرع الخامس: دانيال ديفو – المتوفى سنة ١١٤٣هـ –:

مضمونها أن شخصاً يُدعى روبنسون كروزو، ينجو من حادث تحطم سفينة ويجد نفسه وحيدًا على جزيرة معزولة، تحكي الرواية عن صراعه للبقاء على قيد الحياة واكتشافه لقدراته في الاعتماد على الذات والعيش في البرية(٣).

المطلب الثالث: الأفكار:

تميّزت كل معالجة لقصة حي بن يقظان بخصوصية فكرية وتأويل فلسفي متمايز، حيث عكست كل نسخة رؤية معرفية منفردة، تُزاوج بين البُعد التأملي والطرح الرمزي، وقد تبلورت أبرز هذه المضامين الفكرية ضمن الفروع الآتية:

---

(١) حي بن يقظان ص٢٥٧.

(٢) حي بن يقظان ص٢٧٢.

(٣) روبنسون كروزو ص٣٣.

الفرع الأول: ابن سينا:

تتمحور الأفكار عند ابن سينا حول النفس، المعرفة، والسعي نحو الكمال الروحي كما يلي:

- **استقلالية النفس**: يرى ابن سينا أن النفس جوهر مستقل عن الجسد، ترتبط به مؤقتًا وتسعى للتحرر للوصول إلى الكمال عبر الاتصال بالعقل الفعّال.

- **المعرفة الفطرية والتأمل**: يؤمن ابن سينا بقدرة الإنسان على الوصول للمعرفة من خلال التأمل العقلي والفطرة، دون الاعتماد الكامل على التعليم التقليدي، مما يعزز استقلالية العقل.

- **التدرج المعرفي**: يُبرز "حي بن يقظان" رحلته من استكشاف العالم الحسي إلى إدراك الحقائق الميتافيزيقية، مع اكتشاف حقيقة علوية تتجاوز المادة.

- **الغاية النهائية للنفس**: يعتبر ابن سينا الاتصال بالعقل الفعّال الكمال الروحي والمعرفي، حيث يقود هذا الاتصال للوصول إلى الحقيقة العليا.

- **التحرر من الشهوات**: يوضح النص أن المعرفة الحقيقية تتطلب التجرد عن الرغبات المادية، مما يعكس فلسفة ابن سينا حول الزهد لتحقيق النقاء الروحي.

- **ثنائية الجسد والنفس**: يُبرز ابن سينا أن الجسد فاني بينما النفس خالدة وتطمح لمعرفة كاملة، حيث يمثل الموت بداية تحرر النفس وعودتها إلى أصلها النقي.

- **العقل والسعادة**: يؤكد النص أن السعادة الحقيقية تتحقق عبر الوصول للحقيقة والتوحد مع العقل الفعّال، مما يعني أن السعادة تأتي من الإنجاز الروحي والعقلي، بعيدًا عن الماديات.

الفرع الثاني: ابن طفيل:

تتمحور الأفكار عند ابن طفيل حول دور العقل، الروح، والمعرفة الذاتية كما يلي:

- **قدرة العقل على إدراك الحقائق**: يرى ابن طفيل أن العقل الفطري يمكنه الوصول إلى الحقائق الكبرى من خلال التأمل، دون حاجة للتعليم الخارجي.

- **واحدية الوجود**: يؤكد النص على أن كل الكائنات مترابطة وتعود إلى خالق واحد، مما يشير إلى وحدة الوجود.

- **التجربة الذاتية والمعرفة الروحية**: يعتقد ابن طفيل أن المعرفة الحقيقية تأتي من التجربة الشخصية والتأمل الداخلي، وليس فقط من التعلم النظري.

- **صعوبة نشر الحكمة**: يوضح أن انشغال الناس بالحياة المادية يجعلهم غير قادرين على فهم الحقائق العميقة.

- **التوازن بين العقل والروح**: يشير إلى ضرورة الدمج بين العقل والتأمل الروحي للوصول إلى الكمال.

الفرع الثالث: السهروردي:

تتمحور الأفكار عند السهروردي حول المعرفة والنفس بفلسفة إشراقية كما يلي:

- **النور الإلهي كمصدر للمعرفة**: تُبرز القصة أن النور الإلهي هو أساس كل معرفة حقيقية، حيث تصل النفس إلى الحقيقة عبر إشراق داخلي.

- **تحرر النفس من الجسد**: يُنظر للجسد كعائق أمام النفس، ويجب تجاوزه للوصول إلى النقاء الروحي.

- **العقل كأداة للتنوير**: يعتبر العقل وسيلة لمساعدة النفس في اكتساب المعرفة الباطنية، وليس غاية بحد ذاته.

- **الاتحاد مع الحقيقة الإلهية**: الهدف النهائي للنفس هو الاتصال بالنور الأعظم، حيث تصل إلى السلام والكمال.

- **رفض العلم الظاهري**: يعارض النص التعليم التقليدي والعلم الظاهري، مع التركيز على التجربة الروحية المباشرة كأساس للمعرفة.

الفرع الرابع: ابن النفيس:

تتمحور الأفكار عند ابن النفيس حول العقل والمعرفة والحياة كما يلي:

- **العقل والتفكير التجريبي**: يعتبر ابن النفيس العقل الأداة الرئيسية لاكتساب المعرفة، حيث يعتمد فاضل بن ناطق على التأمل في الطبيعة والتفكير التجريبي، مما يعكس أهمية العلم والملاحظة كطريق للفهم.

- **التفكر النقدي ورفض النقل الأعمى**: يشدد ابن النفيس على عدم الاعتماد الأعمى على النصوص الدينية أو العلمية، ويدعو إلى ضرورة التدقيق والفهم لتأسيس إيمان عقلاني مدعوم بالأدلة.

- **التوافق بين الدين والعقل**: يؤكد ابن النفيس أن الدين والعقل يكملان بعضهما للوصول إلى الحقيقة، ويمثل فاضل بن ناطق هذا التوازن عبر فهم للدين يستند إلى المنطق والمعرفة.

- **نقد العلوم الظاهرية**: ينتقد العلوم التي تعتمد على القوالب الجامدة دون تجربة أو بحث، ويشجع على استخدام البحث العلمي للوصول إلى الحقائق.

- **التدرج المعرفي**: يمر فاضل بن ناطق بمراحل مختلفة لفهم الطبيعة وما وراءها، مما يعكس أهمية التعلم التدريجي لتحقيق فهم شامل.

- **وحدة الوجود**: تعبر القصة عن رؤية أن الكون مترابط ويخضع لقوانين واحدة تشير إلى خالق واحد، مما يبرز فهمًا عميقًا للترابط الكوني.

- **التوازن بين التجربة الروحية والعلمية**: يدعو ابن النفيس لتحقيق المعرفة الكاملة من خلال توازن بين العلم والتجربة الروحية للوصول إلى السلام الداخلي.

- **الغاية النهائية للحياة**: يرى ابن النفيس أن الهدف من الحياة ليس فقط تحصيل المعرفة، بل تحقيق فهم شامل للوجود وسعادة روحية من خلال فهم حقيقة الكون والخالق.

الفرع الخامس: دانيال ديفو:

تتمحور الأفكار عند دانيال حول الصراع من أجل البقاء والإيمان والأخلاق وتطوير الذات كما يلي:

- **قوة الإرادة والبقاء**: يجسد كروزو صراع البقاء عبر قوة إرادته وتطوير مهاراته، حيث يتعلم الاعتماد على الذات ويخترع وسائل تساعده على النجاة في الجزيرة.

- **التعلم من الطبيعة والتكيف**: يكتسب كروزو فهماً عميقاً للطبيعة ويستفيد من مواردها، مما يبرز قدرة الإنسان على التكيف مع البيئة المحيطة.

- **الإيمان والتواضع**: يمر كروزو بتجربة روحية أثناء عزلته، فيتعمق في إيمانه ويتحول إلى شخص أكثر تواضعًا، ما يساعده على إيجاد السلام الداخلي من خلال التأمل والاعتراف بأخطائه.

- **الاعتماد على النفس وتطوير المهارات**: يقوم كروزو ببناء مأوى وزراعة المحاصيل وتربية الحيوانات، مما يعكس أهمية الاستقلالية واكتساب مهارات جديدة للحفاظ على بقائه.

- **أثر العزلة النفسي**: تؤثر العزلة في كروزو عاطفيًا وفكريًا، حيث يبدأ بالتحدث إلى نفسه ومع الأشياء من حوله، مما يقوده لإعادة تقييم قيمه وأولوياته.

- **الصداقة والإنسانية**: بعد لقائه بالسكان الأصليين وتكوينه علاقة صداقة مع "جمعة"، يدرك كروزو أهمية التواصل والتعاون، ويتعلم التغلب على الخوف من الآخر.

- **التغلب على المخاوف والخرافات**: يتجاوز كروزو مخاوفه ويعتمد على التفكير العقلاني، مما يعزز نضجه النفسي والعاطفي.

- **السعي نحو الحرية والاستقلال**: تمثل القصة رحلة كروزو نحو تحقيق حرية حقيقية بعيدًا عن قيود المجتمع، مكتشفًا قيمًا جديدة تعزز من استقلاله وفهمه للحياة.

المطلب الرابع: الخلاصة:

في قصة حي بن يقظان، استلهم كل من ابن سينا، ابن طفيل، السهروردي، ابن النفيس، ودانيال ديفو فكرة الإنسان الذي يعيش منعزلًا ويبحث عن المعرفة، لكن كل واحد منهم أضفى عليها طابعه الفلسفي والفكري الخاص، ما جعلها تُقدَّم في سياقات متعددة كما يلي:

الفرع الأول: ابن سينا:

قدم حي بن يقظان كمثال على قوة العقل البشري للوصول إلى الحقيقة المطلقة عبر التأمل الذاتي دون معلم، فاستخدم ابن سينا هذه القصة لعرض مفهوم العقل الذي يتجاوز العالم المادي ليصل إلى حقائق الوجود والذات.

الفرع الثاني: ابن طفيل:

انطلق من فكرة ابن سينا، لكنه أضاف بُعداً صوفياً، حيث رأى أن الوصول إلى الحقيقة ليس فقط عقلياً، بل أيضاً روحانياً، فوضع ابن طفيل حي بن يقظان كرمز للعارف الذي يصل إلى الله من خلال تأمل الكون والتجربة الروحية.

الفرع الثالث: السهروردي:

صاحب الفكر الإشراقي، أعاد توظيف القصة ليعبر عن فلسفته النورانية، في رؤيته، المعرفة تأتي عبر "نور" داخلي يقود إلى فهم الحقائق، مما يجعل حي بن يقظان يصل إلى المعرفة من خلال إشراق روحي، أكثر من كونه مجرد تفكير عقلي.

الفرع الرابع: ابن النفيس:

اتخذ منحى عقلانياً وعلمياً، حيث رفض الإشراقية والصوفية، واعتبر أن حي بن يقظان يمكنه الوصول إلى المعرفة عبر التجربة والملاحظة العلمية، مما يعكس روحاً عقلانية تجريبية في تفسير الظواهر الطبيعية دون استعانة بالبعد الروحي.

الفرع الخامس: دانيال ديفو:

رغم كونه كاتباً غربياً، كتب "روبنسون كروزو" التي تشبه حي بن يقظان في بعض الجوانب، حيث تواجه الشخصية الطبيعة وحيدة، لكن قصته تحمل طابعاً عملياً في محاولة البقاء على قيد الحياة، بعيداً عن الأبعاد الفلسفية أو الروحية، ما يجعل تركيزه مختلفاً تماماً.

المبحث الثاني

حي بن يقظان عند الإمام الناصر

وردت قصة حي بن يقظان في كتاب (مسائل المجبرة عن وسوسة إبليس وسائر الشياطين)[١] للإمام الناصر أحمد بن يحيى بن الحسين، في سياق معالجة قضايا فلسفية ولاهوتية تتعلق بالعقل، المعرفة، الإيمان، والإغواء الشيطاني، استعرض الإمام الناصر من خلالها إشكالية إدراك الإنسان للواجبات الشرعية دون تلقيها من نبي أو وحي، ومدى قدرة الشيطان على إغوائه، وتأثيره عليه في حال كان معزولاً عن المجتمع.

تناول الإمام الناصر هذه القصة ليس فقط من زاوية فكرية مجردة، بل ربطها بنقد آراء المجبرة، الذين يعتقدون أن الإنسان مُجبر على أفعاله، ولا يملك حرية الاختيار في مواجهة وساوس الشيطان وتأثيره، فقام بتحليل آرائهم وتفنيدها، مبيناً بطلان القول بالجبر، ومؤكداً على مسؤولية الإنسان في تقرير مصيره بناءً على إرادته الحرة.

سيتناول هذا المبحث تحليل مضمون القصة كما رواها الإمام الناصر أحمد بن الهادي، مع استعراض أفكاره حول إدراك الإنسان للشرائع الفطرية، ومسألة الإغواء الشيطاني، بالإضافة إلى رده على المجبرة، مع إضافات تتناسب مع طرحه الفكري على قدرات الشيطان المتخيلة.

---

(١) الكتاب حققه الدكتور المحقق إمام حنفي ضمن كتابه (إبليس في التصور الإسلامي بين الحقيقة والوهم)، الصادر عن دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

المطلب الأول: المضمون:

المضمون أن أبوين توفيا وتركا غلاماً في جزيرة خالية من البشر، هل يمكن لهذا الغلام التوصل إلى معرفة الشرائع مثل الصلاة والصيام، وهل يمكن للشيطان أن يغويه ويضله وهو على الفطرة، وإذا كان الجواب نعم كيف ذلك؟

وهذا نص الإمام الناصر: «رجل وامرأته، كانا في المركب، ثم باق بهم المركب؛ فخرجا إلى جزيرة، فكان الرجل من مرتهم؛ فحملت غلاماً، ثم بلغ الغلام ثلاث سنين؛ ثم ماتا وتركاه».

«أيصل إلى قلبه الأمر بالصلاة والصيام وجميع الفرائض بلا مخبر له ولا معبر»، و«هل يقدر إبليس يغويه ويضله، أم لا يقدر على ذلك؟»، و«كيف يغويه إبليس، وكيف يضله، وكيف يضل غيره من جميع الخلق».

المطلب الثاني: الأفكار:

اشتملت المسألة عند الإمام الناصر على جملة من الرؤى والأفكار العميقة، وكان من أبرزها ما يرتبط بالعنوان، وهو أثر الشيطان وتجلياته في النفس والسلوك، وسنفصّل هذه الأفكار في أربعة فروع رئيسية، يكشف كل منها جانباً من أبعاد هذا التأثير.

الفرع الأول: هل يمكن إدراك الواجبات الشرعية دون مخبر:

المقصود بالواجبات الشرعية كالصلاة والصيام والحج ونحو ذلك، والمخبر المقصود هو النبي المرسل من الله تعالى لإبلاغ ذلك، الجواب قياساً على أنفسنا «نحن، فلم ندر ما الكتاب ولا الإيمان حتى أوحى الله عز وجل، إلى رسوله،

صلوات الله عليه وعلى الأخيار من ذريته، فبلغ إلينا ما أمره الله، عز وجل؛ به من طاعته وفرائضه؛ ونهانا عن معاصيه».

وهذه الحالة مانعة من العقاب الدنيوي أو الأخروي كما في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[الإسراء:١٥]، فلا استحقاق للتكليف أو العقاب قبل ورود الشرع.

وبناء على ذلك فإن الواجبات الشرعية لا تُدرك بمعزل عن الوحي والإرشاد الإلهي، بل تتطلب وجود رسول أو مصدر للتعليم، بمعنى آخر لا يمكن إدراك الواجبات الشرعية كاملة دون تعليم أو إخبار بها.

الفرع الثاني: هل يقدر إبليس على إغواء الإنسان وإضلاله:

وهنا يسأل الإمام الناصر:

«أخبرونا: هل يقدر إبليس يغويه ويضله، أم لا يقدر على ذلك؟

فإن قالوا: إنه لا يقدر على أن يضله.

لزمهم لنا عجز إبليس وضعفه، وأنه لا يقدر أن يغوى أحداً من الخلق ولا يضله، ورجعوا عن قولهم ودعواهم في إبليس أنه قادر على إضلال الخلق وإغوائهم».

[قدرة إبليس على إغواء الغلام]:

«وإن قالوا: إنه قادر على إضلال ذلك الغلام وإغوائه.

قلنا لهم: فأخبرونا عن إبليس مخيرٌ في ذلك الفعل أم مجبرٌ عليه جبراً؟

فإن قالوا: إنه مجبور عليه، لزمهم أن الله عز وجل، البريء من قولهم، أنه أجبرا إبليس على إضلال ذلك الغلام؛ وقد أخبرنا في كتابه أنه لم يخلق إبليس إلا

لطاعته لا لمعصيته؛ إذ قال عز وجل: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦].

فكيف انتقض قوله، وجبر إبليس على إضلال ذلك الغلام، من قبل أن يبدأه بالخير، ومن قبل أن يلزمه الله عز وجل حجة؛ إذ قال: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾[النساء: ١٦٥]، وقوله: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾[الإسراء:١٥]!

فتراه قد عذب هذا الغلام لإضلال إبليس له من قبل أن يبعث إليه رسولاً ومن قبل أن يلزمه حجة واضحة، وتراه قد بدأ بالشر قبل الخير، وبالنقمة قبل النعمة، وبالضلال قبل الهدى، وبالسوء قبل الإحسان؟!

وليس هكذا وصف نفسه، عز وجل؛ إذ قال: ﴿**وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [البقرة:٢٠٧]، وقوله: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة:١٨٥].

فأي عسر أعظم، وأي بلاء أكبر من انه أقدر إبليس على ذلك الغلام الذي في الجزيرة بلا ذنب ولا جرم، فأضله وأغواه عن غير استحقاق، وقد خلق الله إبليس أيضاً للطاعة ولم يخلقه للمعصية؛ إذ قال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦]، وإبليس فهو من الجن، يصدق ذلك قول الله عز وجل: ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**﴾[الكهف:٥٠].

فتراه يخبرنا عن فسقه عن أمره باختياره، ويلومنا عن اتخاذنا له أولياء ولذريته، وذلك الاتخاذ هو اتباعنا لهم على معاصيهم، وفعلنا للظلم كفعلهم».

[هل إغواء إبليس للغلام طاعة أم معصية]:

«فنقول لهم: أخبرونا حيث خلق الله إبليس للطاعة، أليس عليه الطاعة لله عز وجل فريضة؟

فإذا قالوا: بلى.

قلنا لهم: فأخبرونا عن إضلاله للغلام أهو طاعة الله عز وجل أو معصية؟

فإن قالوا: هو طاعة الله عز وجل، لزمهم - صَغَرَةً أقمِيَاء[1] - أن إبليس مطيع الله عز وجل في إضلال الخلق، وأنه يوم القيامة؛ [على طاعة] لا على معصية؛ وفي هذا نقض القرآن، والكفر بالرحمن والخروج من الإيمان.

وإن قالوا: إن إضلال إبليس للغلام هو معصية الله عز وجل.

لزمهم انه قد ترك ما خلق له واتبع هواه، وخالف خالقه ووجب عذابه بمعصيته، وقالوا بالعدل.

[عن كيفية الإغواء للغلام في الجزيرة]:

ثم نقول لهم: أخبرونا أليس قد قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾[الأعراف: ٢٧]؟

فإذا قالوا: بلى.

قلنا لهم: فأخبرونا عن ذلك الغلام الذي في الجزيرة، كيف يغويه إبليس، وكيف يضله، وكيف يضل غيره من جميع الخلق - على أنه ما لزم في واحدٍ لزم في جميع الخلق، إذ القصة واحدة؟

---

(١) راضين أذلاء.

فلا بد لهم أن يقولوا: إنه يبدوا لهم، فيردون على القرآن، ويضلهم على وجه من الوجوه.

فإن ادعوا أمراً لا تقبله العقول، ولا تقوم لهم به حجة سقط قولهم، إلا أن يدعوا إنه يقدر على الخلق كقدرة الله عز وجل؛ على خلقه! فيوجبوا خالقاً آخر قادراً قوياً مع الله! فيلزمهم الشرك والخروج من فيه الإسلام كافة، لابد لهم من ذلك، أو الرجوع عن الجهل».

الفرع الثالث: قدرات إبليس المتخيلة:

يذكر القائلون بقدرة إبليس على إغواء الإنسان وإضلاله والتحكم به وإلحاق والضرر به عدداً من الإمكانيات المؤثرة في الإنسان، وسنعرض هنا بعضاً منها مما يغني عن استقصاء جميعها.

- الوعد والتمنية:

يستند القائلون بقدرته على ذلك بآيات من القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ**﴾[البقرة: ٢٦٨]، وقوله تعالى يحكى عنه - إذ قال: ﴿**وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ**﴾[النساء: ١١٩]، وقوله تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ**﴾ [محمد: ٢٥]، وقول إبليس: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾[الأعراف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾[الحشر: ١٦].

قالوا: فقد نراه ها هنا يأمر ويعد ويوسوس بالقول، وذلك أنه يصل إلى قلوبهم منه شيء؛ ويلقى إليهم، وزعموا أنه يجري من الإنسان مجرى الدم!

الرد على هذا الزعم: نحن وهم، لم نرَ أحداً يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء إلا شيطان بني آدم، فكيف لهم أن يقطعوا الشهادة على شيطان الجن دون شيطان الإنس، وقد أخبرهم الله أن في الإنس شياطين كما في الجن؟

لماذا حصروا الشهادة على الجني دون الإنسي، مع أن الإنسي هو الذي رأيناه يباشر الأفعال، أما الجني فلم نشهده عياناً؟ والله لم يميز بينهما في كتابه، فلماذا ميزوه هم؟

وقد ترتب على هذا القول – أي إثبات قوة وقدرة لإبليس خارقة – مفاسد:

أولاً: فساد التوحيد:

لو كان لإبليس من القوة والقدرة ودقة التدبير ما يعجز الخلق عن إدراك كنهه، للزم من ذلك القول بأن لا فرق بين قوة الله وقدرته ولطائف صنعه، وبين قدرة إبليس ودقة تدبيره، وهذا يعني التسوية بين الخالق، الذي هو الواحد الفرد الذي ليس كمثله شيء، وبين مخلوق زُعم له من القدرة ما يجعله نِدّاً لله، وهذا يفسد التوحيد؛ إذ يقتضي وجود كائن يقدر كقدرة الله ويفعل كفعله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثانياً: اختلال الحكمة والعدل:

فإن قال قائل: إن الله أقدره على ذلك، وهيأ له السبيل والقوة لفعله، لزمه الإقرار بأن حكمة الله هنا ليست كحكمته، وأن حسن تدبيره لخلقه ليس حسناً، وأن رحمته بهم ليست رحمة؛ إذ مكّن عليهم عدواً يأتيهم من حيث لا يعلمون، ثم أمرهم بمخالفته بعدما أقدره عليهم!

فأي ظلم أعظم من هذا؟ وأي جور أشد؟ كيف يُكلَّفون الحذر من عدو لا يرونه ولا يدركون كنه أسبابه، وهو القائل: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[البقرة: ٢٨٦] و قوله: ﴿**إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾[الطلاق: ٧]؛ وقوله: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾[الأحزاب: ٤٣].

فلا يوجد دليل من تجربة شخصية أو شهادة تُثبت أنّ إبليس وعد أحداً بالفقر أو أمره بالفحشاء، ولا يمكن لأحدٍ أن يشهد بحدوث ذلك، لأنا لا ندرك الأشياء إلا من خلال الحواس الخمس، ولم يثبت أنّ إبليس خاطب أحداً بشكل مباشر أو غير مباشر، فكيف نُثبت له هذه القدرة؟

- الوسوسة:

فإن قال قائل: قد قال الله عز وجل في كتابه: ﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾[الناس:٦]، فقد أخبرنا بهذه فلا حجة لكم فيها.

قلنا: هذا جهل وخطأ، ونرد عليه بما يقطع الشك، بعون الله:

الله عز وجل، عنى بهذه الآية ما يقع في قلوب بني آدم وما يجري في صدورهم من خواطر، سواء في الصلاة أو غيرها، فمن المعلوم أن الإنسان يجد في صدره وساوس تتعلق بالجِنة والناس، لكن لا يسمع صوتاً يكلمه، ولا يرى من يخاطبه، ولا يحس بأحد يمازج قلبه.

والدليل على ذلك: أنك إذا كنت تصلي، ثم خطر ببالك خاطر، فلا أحد يكلمك في صلاتك؛ لأن الكلام في الصلاة لا يجوز بإجماع الناس، ولا أحد

يهمس لك أو يوسوسك في تلك الحال، فكيف يكون وسواس الناس للناس في الصلاة، إن كنتم صادقين؟! لا سبيل لكم إلى إثبات ذلك.

فإن قالوا: هو صوت من يناديني، وكلام من يحدثني.

قلنا: ليس هذا هو الوسواس المقصود، بل الوسوسة هي شيء لطيف خفي، كما تدّعون في شأن إبليس، أما أصوات بني آدم وإشغالهم للمصلي فهي كثيرة، لكن لا علاقة لها بمعنى الوسوسة المذكورة في الآية.

إذاً وسوسة بني آدم للناس ليست وسوسة حسية محسوسة، وبذلك يلزمكم القول بأن وسوسة الجن أيضاً لا تُعقل إلا بإدراك الحواس الخمس، ولكن قد ثبت أن الحواس لا تدرك إلا المحسوسات، ولذلك سُمّيت "حواس" لأنها تحس الأشياء وتدركها.

أما ما لا تدركه الحواس، فلا حجة عليها فيه، والله الواحد القهار لا تدركه الحواس، ولذلك وجبت له الوحدانية، واستحق الربوبية؛ لأنه لا يُرى ولا يُسمع ولا يُحس، ولا يقاس بالخلق.

فإن كان هناك شيء نُهينا عنه وحُذّرنا منه، لكنه غير مدرك بالحواس، فهذا تكليف بما لا يُطاق، ولا يمكن الحذر منه لأنه لا يُدرَك أصلاً، وهذا لا يجوز على الله في حكمته وعدله؛ إذ لا يعقل أن يحذر العباد من شيء لا سبيل لهم إلى معرفته أو إدراكه.

ولا يجوز أن يكون بهذه الصفة إلا الله، الذي ليس كمثله شيء، وفي القرآن آيات متشابهة لها معانٍ دقيقة لا يفهمها العامة، بل تحتاج إلى معرفة بلاغة العرب ولغتهم، فالقرآن نزل بلغة عربية واضحة، لا التواء فيها، ولذلك قامت به الحجة على الناس، لأنه نزل بلسانهم، لا يخفى عليهم منه شيء.

[حقيقة الوسوسة]:

فمن الشواهد على ما قلنا: أن الوسواس إنما يعنى به ما يخطر على قلب الآدمي من ذكره الجِنة والناس، لا أنهم يوسوسنه في صلاته، فأما غير الصلاة فإن شياطين بني آدم توسوس إخوانها بكل شيء مما تأمرها به، وتشير عليها من القتل والزنا والسرقة والشرب للخمر وجميع المعاصي.

والدليل على ذلك قوله: ﴿**شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾[الأنعام:١١٢]، فالوحي والتواصل يتم بين شياطين الإنس أنفسهم، وليس بين الجن والإنس، لأننا لم نجد ذلك واقعاً في حياتنا.

وأما قوله عز وجل: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾ [الأنعام:١١٢]، فهو لا يعني أنهم مجبرون، بل أنهم مختارون في أفعالهم، فلو شاء الله لمنعهم، لكنه لم يجبرهم على المعاصي، بل ترك لهم حرية الإرادة، وهذا هو مقتضى العدل.

رجع الكلام إلى تفسير الشواهد على قوله: ﴿**مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾ [الناس:٦].

- فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾ [الحاقة:٦]، ثم قال في ثمود ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ [الأعراف:٧٨]، فأخبر عز وجل؛ أن عاداً أهلكت بالريح الصرصر، وأن ثموداً أهلكت بالرجفة، ثم قال بعد ذلك في سورة حم السجدة: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾[فصلت:١٣].

فجاء ها هنا أن الفريقين إنما هلكا جميعاً بالصاعقة بعد ما قال ما قال أنهما هلكا بالريح والرجفة! وهذا من عجائب العربية؛ لأن الريح عند العرب

الصاعقة وكل عذاب هو عندهم صاعقة؛ لا يشكون في ذلك؛ لما يعوا في كلامهم وخطابهم، والدليل علي ذلك أن الصعق القيسي كان يقري أضيافاً له، واشتدت عليه الريح مآذنة فدعا عليها، فسلطها الله عز وجل عليه فأهكلته فمات منها؛ ولذلك لا يعرف هو ولا ابنه في قيس إلا بعمر بن الصعق.

قال الشاعر:

وإنّ خويلـــداً فـــابكي عليـــه قتيل الـريح في البلـد التهـامي

فسموه «الصعق»، ورثوه بأنه قتيل الريح، وأن الصعق عندهم - هو الريح، فافهم هذا الباب إن شاء الله.

- وشاهد آخر، قوله عز وجل: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[البقرة:٢٥٧]، والكفار لم يكونوا قط في النور فيخرجوا منه، وإنما هم في الظلمة والعمى أبداً، وإنما المعنى فيه أن من مال عن الحق فهو خارج من النور.

- وقال الله عز وجل في صفة النار - نار الآخرة -: ﴿**لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ**﴾[الزخرف:٧٥]، وأعلمنا أنه لا يفتر عنهم؛ والذي لا يفتر هو الدائم غير المنقطع، ثم قال: ﴿**مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً**﴾ [الإسراء:٩٧]، فأعلمنا - ها هنا - أنها تخبو، و «الخبو» في لغة العرب، التي يتجمد لهبها القوى، ويعود إلى الجمود والسكون واللين بعد الشدة والحركة العظيمة.

قال الشاعر:

يسطع الضـرب بينهم ثـم يخبـو كالخبـــاء المقطـــع الأطنـــاب

وهذا يوجب الاختلاف، وقد قال الله عز وجل: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾[النساء:٨٢]، وإنما المعنى فيه وهو باب تسمية العرب المقلوب في اللغة، وكذلك تسمية المقلوب في لغاتها وأشعارها.

وإنما المعنى فيه أن النار كلما أحرقت جلودهم أعادها الله عز وجل على ما كانت عليه تأكلهم، حتى يحترقوا، ثم يعادوا ويبدأوا، وذلك قوله عز وجل: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ [النساء:٥٦] فقال – عز وجل–: كلما خبت زدناهم سعيراً؛ يعني بالخبو، خبو ما يحرق لا خبوها هي، وهذا الباب تسميه العلماء المقلوب في القرآن.

وكذلك تسمية العرب في لغاتها وأشعارها، قال الشاعر في نحو ذلك:

حتى لحقناهم تعدوا فوارسنا كأننا رعن قف يرفع الآلا

فقال: يرفع الآل، والآل: السراب في لغة العرب، يريد أن الآل يرفع القف، والقف: هضبة من الهضاب، فصيّر الآل المرفوع وهو الرافع.

وقال آخر:

ونركب خيلاً بعد خيل قواصداً وتعدوا الرماح بالضياطرة الحمر

فصيّر الرماح تعدوا بالرجال، والرجال هم الذين يعدون بها.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾ [القصص: ٧٦]، والعصبية هي التي تنوء بالمفاتيح، فافهم هذا الباب، إن شاء الله.

وقد قال الله عز وجل: ﴿**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾[الأنبياء: ٣٧]، والعجل منه هو، وهذا حجة عليكم في قولكم: يوسوس في صدور الناس من الجنة

والناس، ألا ترى قوله: ﴿**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾[الأنبياء: ٣٧]، والعجل منه هو!

- ومن الشواهد على تصريف اللغة العربية، قوله عز وجل: ﴿**بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾[سبأ: ٣٣]، والليل والنهار لا مكر لهما، وإنما عنى عز وجل مكر الكفار بالليل والنهار، فجاز ذلك في اللغة، كما تقول العرب: أكل الليل يضرني، وهو لا يأكل الليل، وإنما يريد: أكلي بالليل يضرني.

قال الشاعر يمدح هوذة بن علي الحنفي:

جيادك في الصيف في نعمةٍ تصان الجلال وتعطى الشعيرا

وإنما يريد تصان بالجلال فصيّر الجلال المصونة.

وقالت خنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية تصف ناقة بطلت ولدها:

ترعى إذا نسيت حتى إذا ذكرت فإنما هي إقبال وإدبار

تعني أنها مقبله ومدبرة، لا أن في صورتها إقبال وإدبار.

وهذا من عجائب العربية، التي صرفوها إلى عقولهم واتباع أهوائهم، هذا وإنما جربنا هذا الاحتجاج في اللغة العربية وكيف تصريف معانيها في القرآن؛ ليعلم جميع [من] خالفنا في إبليس وفي الجن أن ذلك كله له معنى يجري في اللغة العربية، ويصرفها التأويل إلى معنى غير الذي ظنوا، ولكن لا معرفة للقوم بمعاني القرآن، ولا معانى اللغة العربية التي خاطب الله عز وجل أهلها بكتابه المبين، وجعله حجة عليهم إلى يوم الدين.

[رمزية إبليس]:

إبليس ليس كائناً مستقلًا يتصرف بقوة خارقة، بل هو رمز للهوى المتبع والانحراف عن الحق، قال الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾

[الجاثية:٢٣]، فجعل الهوى إلهاً للكافر، مع أن الإله أعظم من إبليس، فإذا كان الكافر قد جعل هواه إلهاً، فكيف لا يكون إبليسه هو هواه أيضاً؟

لقد أثبتنا أن إبليس لم يغونا بشيء تدركه الحواس، بل كان عدواً لأبينا آدم، وكل معصية من بني آدم مرتبطة بأصل تلك المعصية، قال الله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ**﴾[الأعراف: ٢٧]، فكيف يفتننا الشيطان، ونحن لا نراه، ولا نسمعه، ولا نواجهه، ولا يكاتبنا، ولا يرسل إلينا، ولا يستطيع الوصول إلى قلوبنا؟

فمن قال إن إبليس قادر على التأثير في القلوب بوسوسة لا ندركها، فقد جعل له قدرة لا تختلف عن قدرة الله، الذي لا يعجزه شيء، وإن قيل إن الله أقدره على ذلك، فهذا يعني أن الله عذب عباده بأمر جعل عدوهم قادراً عليه من حيث لا يعلمون ولا يقدرون على الحذر منه، وهذا مناقض للعدل والرحمة.

[استطاعة الإنسان وقدرة إبليس]:

فإن قال قائل: فالله أقدر بعض الناس على القتل؟

قلنا له: الله تعالى أعطى الإنسان القدرة والاستطاعة، لكنه حرّم القتل، وأعطى الناس القدرة على الدفاع عن أنفسهم، والقاتل يمكن رؤيته واتقاء شره، أما الوسوسة التي تدّعونها فلا يمكن الحذر منها، وهذا يخالف العدل والحكمة.

[إبليس في النصوص القرآنية رمز للهوى]:

كل الآيات التي تتحدث عن إبليس لا تخرج عن معنى الهوى المتبع، والميل عن الحق، والاقتداء بفعل الباطل، ولذلك سُميت المعصية طاعة لإبليس؛ لأن الإنسان أطاع هواه، فنُسبت إلى إبليس مجازاً، لا أنه كائن مستقل يؤثر في الناس.

- **الإغواء:**

ومن الحجة في إبطال قدرة إبليس، وما استدلوا به من آيات القرآن التي تذكر وسوسته وإغواءه لبني آدم، أن هذه الوسوسة تتعلق بهوى النفس، الذي يسير مع شيطان بني آدم أيضاً، فالهوى نفسه يعد شيطاناً؛ لأنه يرضي الشياطين، كما جاء في قول موسى عليه السلام بعد أن وكز القبطي فقتله: ﴿**هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**﴾[القصص:١٥]، أي أن هذا الفعل من جنس عمل الشيطان، وليس أن الشيطان هو الذي ارتكب الفعل نفسه.

فلو كان قتل موسى عليه السلام للقبطي من عمل الشيطان مباشرة، لما نسبه الله إليه في قوله: ﴿**وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا**﴾[طه:٤٠]، ولو كان الفاعل إبليس، لوجب أن يُنسب إليه الفعل، لا أن يُحمّل موسى المسؤولية، وهو بريء منه وفق الآية: ﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾[النساء:١١٢].

كيف يُعقل أن الله يعاتب على أمر، ثم يكون هو نفسه الذي يلزم الأبرياء به؟! ولو كان لإبليس أي دور في قتل القبطي، حتى لو بمقدار شعرة، لوجب اعتباره شريكاً في الجريمة، ويستحق نصيباً من الدية؛ إذ إن الدية تُقسم بين القتلة جميعهم، وبناءً على هذا المنطق، يجب أن يكون إبليس شريكاً في كل الجرائم والمعاصي في الأرض، سواء كانت زنا أو سرقة أو شرب خمر، مما يستلزم أنه حاضر مع كل مرتكب للمعصية في كل زمان ومكان، وهو ما لا يستقيم عقلاً ولا شرعاً.

- **الأعوان:**

فإن قال المخالفون إن لإبليس أعواناً يفرقهم في البلدان ليضلوا الناس، فالسؤال هنا: هل هؤلاء الأتباع مجبورون على الإضلال أم مخيرون؟ إن قالوا

إنهم مجبورون، فهذا يستلزم أن البشر بلا حول ولا قوة أمام تسلط إبليس وأعوانه، وهذا يتناقض مع قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦]، وإن زعموا أن الإضلال نفسه عبادة، لزمهم القول بأن الله يعذب المطيعين، وهو ما يخالف صريح القرآن: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[ص:٨٥].

وإن قالوا إنهم مخيرون، فهذا ينقض القول بالجبر، ويثبت أن الناس قادرون على عدم طاعة إبليس، وأنه ليس له سلطان عليهم، إلا من اختار طاعته بمحض إرادته.

وأما استشهاد موسى عليه السلام بقوله: ﴿**هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾ [القصص:١٥]، فلا يعني أنه يلقي اللوم على إبليس في القتل، بل يعني أن الظلم والعدوان من جنس عمل الشيطان، فإبليس كان أول من عصى الله متعمداً، وليس لأنه يملك قدرة على القلوب كتلك التي لله، كما يزعم الجهال الذين يجعلونه نداً لله في القدرة.

ولو كان إبليس قادراً على إضلال الناس بأساليب لا يرونها، ولا يعرفونها، لوجب أن يكون له من القوة والقدرة مثل ما لله، وهذا كفر وإلحاد، فنعوذ بالله من الضلال والانحراف في العقيدة.

- أن له منقاراً:

وقد زعم بعضهم أن لإبليس منقاراً طويلاً، يدخله في أذن الإنسان حتى يصل إلى قلبه، فيوسوس له بذلك(١)!

---

(١) «إن للوسواس خطما كخطم الطائر، فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس، فإن ابنُ آدم ذكرَ اللهَ نكص وخنس، فلذلك سمى الوسواس الخناس» جامع الحديث ج٩ص٢٣٩.

وهذا أحول المحال، لأن الله جعل الحواس الخمس وسيلة إدراك للإنسان، فلا يمكن أن يمر شيء عبرها دون أن يشعر به، فمن المستحيل أن يدخل منقار في الأذن ويصل إلى القلب دون أن يحس به الإنسان، إذ إن أدنى ما يلامس الحواس، كالشعرة التي تدخل الأذن، لا بد أن يشعر بها صاحبها.

وأنتم تعلمون أنكم لم تروا هذا المنقار، ولم تشعروا به عند دخوله في الأذن أو وصوله إلى القلب، فإن زعمتم أن الله مكّن إبليس من ذلك، فهذا يستلزم أن الله يجبر الإنسان على ما لا يطيق، وهو ما يناقض قوله تعالى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[البقرة:٢٨٦]، وقوله: ﴿**إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾[الطلاق:٧]، فكيف ينهى الله عن طاعة إبليس، ثم يجعل الإنسان مقهوراً على وسوسته بطريقة لا يستطيع دفعها؟! هذا وصف لله بالجور، والله منزه عن ذلك.

وهذا الادعاء أيضاً ينقض أساس عمل الحواس وإدراكها لما يلامسها، وهو خروج عن المعقول، ومن ناقض العقل لا يُقبل كلامه، بل يُكذب، وما كان خارجاً عن العقل لا يمكن أن يكون ديناً، وما ليس من الدين فهو ضده، وما كان ضد الدين، فمآله إلى الضلال وعاقبته النار.

- العلم بالغيب:

زعم بعض الحشوية المنحرفين عن الحق، أن إبليس ادعى قائلاً: «ما حمل بمحمول قط إلا وأنا أعلم متى حمل به، ولا يولد مولود الا وانا أعلم به إذا ولد، إلا عيسى بن مريم فإني لم أعلم به حين ولد».

إن هذا القول كفر صريح بالله تعالى، وتكذيب لكتابه العزيز؛ إذ يساوي بين علم الله بالغيب وعلم إبليس، ولا يفرق بينهما، وهذا يتناقض مع قوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**﴾[الجن:٢٧].

وإذا ادعيتم أن أئمتكم سمعوا هذا القول من إبليس بعد ميلاد عيسى عليه السلام، لأن إبليس أخبرهم بأنه لم يعلم بميلاد عيسى إلا بعد وقوعه، نسأل: كيف وصلكم هذا الخبر؟

فإن زعمتم أن إبليس خاطبكم مباشرة، فقد كذبكم الله بقوله: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾[الأعراف: ٢٧].

وإن قلتم أنكم سمعتموه بأذانكم، وجب عليكم إثبات صحة هذه الرواية، وتحديد من سمعها وشهد عليها، حتى نصدقها ونعتد بها، وهو أمر مستحيل، فلم يدع أحد من أهل العلم والإسلام أنه سمع الجن دون رؤية أو وحي، إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أخبرنا الله عنه في قوله: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ**﴾[الأحقاف:٢٩]، ولم يخبرنا الله عن أحد غيره أنه سمع الجن أو رآهم.

وإن زعمتم أن إبليس أرسل كتاباً إلى مشايخكم وفقهائكم بهذا الخبر، فنسأل عن هذا الكتاب: كيف وصلكم؟ ومن هو الرسول الذي نقله؟ ومن قرأه عليكم؟

وإن ادعيتم أن إبليس ألقى هذا الخبر في قلوبكم، فما الفرق بين هذا الإلقاء وبين إلقاء الله الوحي في قلوب الأنبياء والملائكة المبلغين عنه؟! وهل لإبليس القدرة على التأثير في القلوب بنفس الطريقة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى؟!

- **الظهور والتحول الشكلي:**

رووا أن إبليس ظهر لقريش يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، حتى كلمهم وقال: «إني جار لكم من بني بكر حتى لا يخالف على مكة بعدكم»(١).

إن كان هذا صحيحاً عندكم، فإما أن يكون ما رووه أصدق من قول الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾[الأعراف: ٢٧]، وإما أن يكون أحد القولين حقّاً والآخر باطلاً، ولا بد من ترجيح أحدهما.

وزعمهم أن إبليس تجسد في صورة سراقة أعظم خطراً عند أهل العقول؛ لأنه إن كان قادراً على التشكل كيف شاء، فقد صار قاهراً في ذاته، مستغنياً في قدرته، ولا قدرة فوق قدرته، بل ساوى الله عز وجل في القدرة على التصرف في الأشياء، مما يعني نفي العجز عنه!

وإن قالوا: بل الله هو الذي أقدره على ذلك.

قلنا: فما الفرق بينه وبين جبريل عليه السلام؟ فقد رووا أن جبريل كان يتشكل في صورة دحية الكلبي، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأله أن يريه هيئته الحقيقية، فواعده إلى منى، ثم جاءه ناشراً جناحيه حتى سد الأفق، فغشي على النبي، ثم عاد إلى صورة الآدمي وأمسك قلبه حتى استعاد وعيه.

فإن كان الله قد خص جبريل، وليَّه الكريم، بهذه القدرة لمكانته الرفيعة، وطاعته، وسفارته بينه وبين أنبيائه، فكيف يجعل لإبليس الملعون - وهو العاصي الكافر - درجة تُمكِّنه من التصور ليضل أولياءه؟ كيف يرفعه إلى منزلة تشبه مقام

(١) سيرة ابن إسحاق ص٣٠٥.

الملائكة الذين يطيعونه ولا يعصونه؟ أين الفرق بين جبريل الطاهر وإبليس الفاسق؟!

وقال الله عز وجل في كتابه الصادق: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[ص:٢٨]، والله تبارك وتعالى، أجل وأعظم وأكرم وأحكم وأعدل، من أن يعطي معجزاته من كذب عليه.

وهذا كزعم من يقول أن الله جعل لفرعون آية، حيث كان النيل يسير معه إذا سار، ويقف إذا وقف! فكيف يفرّقون بين هذا وبين معجزة موسى في العصا وفلق البحر؟! وكيف تلزم الأمة بحجة موسى ولا تلزم بحجة فرعون، إذا كان الأمر كما يزعمون؟!

إذا كان لكلٍّ منهما معجزة، كما يدّعون، فكيف يميّز الناس بين الحق والباطل؟! هل الالتباس من الناس، أم ممن نسب هذه المعجزات للحق والباطل على السواء؟!

سبحان الله! كيف غفلوا عن كتابه، وهو يقول: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ [ص:٢٨]، فهل هناك بيان أوضح من هذا؟! وهل هناك قولٌ أفسد وأبطل مما يزعمون؟!

﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾[الأنعام: ٩١].

﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[الأنعام: ١٠٠].

- **الجريان في الدم:**

ومما احتجوا به رواية «أن إبليس يجري من الإنسان مجرى الدم»(١)، وهذا خبر لم يأت في كتاب ولا سنة، ولا أجمعت عليه الأمة، وما ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في الإجماع فهو باطل؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨]، يعني من أمور الدين.

وكما قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧]، ولم يثبت أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا بهذا.

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((**لا تجتمع أمتي على ضلالة أبداً**))(٢)، فلو كان هذا الأمر حقّاً لكان معلوماً عند الأمة وثابتاً في الشرع.

ثم كيف نحذر ونتقي عدوّاً يجري فينا مجرى الدم؟! وكيف يستقيم هذا مع عدل الله وحكمته، وهو العادل الحكيم الذي لا يظلم عباده؟!

وما ناقض العدل ووافق الجبر، فهو باطل بلا شك.

- **المحادثة:**

ومن الحجة على من خالفنا أننا وجدناهم جميعاً، إذا تحدثوا عن الجن، لم يذكروا عنهم إلا كلاماً نطقوا به أو أخباراً نقلوها عنهم، وليس وسوسة كما ادعوا.

فقد رووا - مثلاً - حديث خُفاف أيام مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وزعموا أن له صديقاً من الجن كان يخبره بمبعث النبي، وكان يأتيه كل

(١) صحيح البخاري ج٩ص٧٠.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج٤٥ص٢٠٠.

ليلة، فيركضه برجله ويقول: «انتبه يا خفاف، فقد بعث رجل من بني عبد مناف، أتى بالعدل والإنصاف، فارحل إليه»!

كما رووا شعراً نسبوه إلى الجن، ومنه:

عجبت للجن وإبلاسها ورحلها العيس بأحلاسها
تمضى إلى مكة تبغى الهدى وما مؤمنوا الجن كأرجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم واسم بعينيك إلى رأسها

وهذه الروايات تثبت أن الجن كانوا يكلمون الناس مشافهة، مما ينقض دعوى الوسوسة.

وزعموا أن الجن يظهرون لهم في أماكن معروفة، وذكروا مواضع محددة مثل البدئ وعبقر ودسمار، وجعلوها أماكن لتلاقيهم مع الجن، لكن هذا كله باطل عند أهل العلم؛ لمخالفته قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾[الأعراف: ٢٧]، فكيف يدّعون علينا الوسوسة، ثم يروون أن الجن يكلمونهم مباشرة؟ أي الروايتين نصدق؟ الوسوسة أم المشافهة؟ هذا تناقض يَهدم حجتهم.

- **التأثير على القلوب:**

فإن قال قائل: إن الله عز وجل، جعل له الاستطاعة على قلوب بني آدم، وجعل لهم الاستطاعة على دفعه عن أنفسهم.

قلنا له: هذا ما لا يجوز على الله عز وجل؛ لأن الله عز وجل خلق إبليس للعبادة لا للمعصية، وكلّف بني آدم الطاعة، وجعل لهم السبيل إليها، ولو كان إبليس يقدر على وسوسة قلوبهم بلطيفة لا يعلمونها، لم يكن لهم إلى دفع ذلك سبيل؛ لدقته عليهم!

فكيف يدفعون عن أنفسهم أمراً - زعمتم - أنه يدق ويلطف عن فطن الخليقة وأذهانهم، ثم يعطون الاستطاعة على دفع ما لا تقع عليه الأوهام، ولا تبلغه الظنون ولا تدركه الحواس؟!

وما لا تدركه الحواس فلا سبيل لأحد إلى معرفته إلا الله الواحد الذي دل على نفسه معرفته بآثار صنعه الدقيق اللطيف، فما الفرق بينه وبين من خلقه؟!

وإن قلتم: الله أقدره على ذلك.

قلنا لكم: فقد خلق إذاً رباً - على قولكم - يساويه في القدرة والقوة والعز والسلطان وهو أعدى الخلق له، وقد قال: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشورى:١١].

فلا مخرج لكم من هذه الحجج إلا بالمكابرة والمغالطة والتسوية بين الله عز وجل، وبين إبليس في القوة والقدرة؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾[الأنفال: ٢٤]، وزعمتم - أنتم - أن إبليس يحول بين المرء وقلبه، فلا نجد فرقاً بين الله عز وجل، وبين عدوه الذليل الضعيف العاجز المقهور!

فإن قلتم: إن الله أقدره على ذلك.

قلنا لكم: فأين قوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى: ١١].

فإن قلتم: ليس هو مثله.

قلنا لكم: من كان قادراً كقدرة الله عز وجل، فقد ساواه.

وأما قول إبليس: ﴿**رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي**﴾[الحجر: ٣٩]، فإنه كذب على الله سبحانه؛ لأنه لم يغوه.

وقال بعض أهل العلم: إنه يخرج على أنه سماه غاوياً، فقال: أغويتني، أي سميتني غاوياً.

فأما ما خاطب الله عز وجل به إبليس في بدء الأمر، يوم عادى آدم، فذلك له معاني يخرج عليها، وقد يذكر بني آدم وينسب بعض فعلهم إلى بعض، مثل ما قال لقوم من بني إسرائيل: ﴿**فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[البقرة:٩١]، يريد بذلك آبائهم، وهم لم يقتلوا، وإنما أخبر عن آبائهم - عز وجل - فهو مثله سواء، لا بد لكم من ذلك.

ولا مخرج لكم منه، حتى ترجعوا إلى الحق فتقولوا أن ليس أحد من جميع الخلق- لا إبليس ولا غيره - يقدر على وسوسة القلوب ولا تصريفها على مراده، إلا الله عز وجل، لا نظير له ولا مساوٍ ولا مشابه ولا عديل ولا مثيل، بوجه من الوجوه، ولا سبب من جميع الأسباب، ومن لم يجبنا إلى هذا القول فقد كفر؛ لأنه إن خالفنا ساوى بينه وبين خلقه، وهذا هو الشرك الأعظم والكفر الأفحش الذي لا كفر بعده.

فإن قالوا: إنما يأتي إبليس الناس من قبل أن يوقع ذلك في قلوبهم لا غير ذلك.

لزمهم القول الأول؛ أنه يجب له من القوة والقدرة الدقيقة اللطيفة ما يجب لرب العالمين العلي العظيم؛ الذي لا يقدر على تصريف القلوب وتقليبها غيره، عز وجل!

وإبليس أقل وأذل وأضعف من أن يكون بهذه المنزلة العالية الرفيعة، التي لم يقدر عليها الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون؛ وقد مدح الله عز وجل نفسه - في غير موضع من القرآن - باطلاعه على القلوب وعلمه بالضمائر وقدرته على

تصريفها وتقليبها، فقال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾[الأنفال:٢٤].

فإن كان إبليس يقدر أن يحولَ بين المرء وقلبه، فقد لزمهم ووجب عليهم أن له قدرة كقدرة الله عز وجل، وأنه قد ساواه في هذه المنزلة التي مدح الله عز وجل بها نفسه ولم يكن له عليه فضل.

وقد زعمتم أن إبليس يقدر أن يحول بين المرء وقلبه.

ومن قال بهذا فقد بان كفره وظهر جهله، وخرج من الإسلام كافة، وقد قال الله عز وجل: ﴿**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[ق:١٦]، فتراه – عز وجل – قد أضاف وسواس النفس إلى النفس ولم يضفه إلى إبليس!

– التأثير في النسيان:

ومما يحتجون به في تقوية إبليس الضعيف – عليه لعنة الله – وتعظيم قدرته على وسوسة قلوب بني آدم، إذ زادوا – مع الوسوسة – أنه يقدر أن ينسي الخلق عن شؤنهم ويذهلهم عن حوائجهم، حتى ينسوا ما يحتاجون إليه، ويذهلوا عن ما لا غنى بهم عنه!

واحتجوا بقوله جل ثناؤه، في ذلك بقصة موسى عليه السلام، وفتاه إذ قال: ﴿**فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾[الكهف: ٦٣]، فهذا قول يحتاج إلى جودة النظر، وتنزيه القرآن عن الاختلاف والتناقض.

ونحن نقول – لمن خالفنا –: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا**﴾[الإسراء:٦٥]؟!

فأي سلطان أقوى من أنه يقدر أن ينسى الصالحين الطاهرين عن مصالحهم ومرافقهم، مع ما أدعيتم له من القدرة على الوسوسة، وهذا ما لا يجوز؛ لأنه قد جاء في الأخبار أن موسى وفتاه عليهما السلام، إنما كان خبرهما أن شيطاناً من شياطين بني آدم، أراد قتلهما، وأغرى الظالمين، فلزمهما خوفه أن ينسيا حوتهما.

فهذا الذي جاء به الأخبار، وليس لإبليس - ولا كرامة - قدرة يقوى بها على أن يوسوس في الصدر، وينسي الأمور؛ لأن هذه القدرة لا يقدر عليها إلا اللطيف الخبير، والدليل على ذلك قوله: ﴿**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[ق:١٦]، فقد نسب الله عز وجل، الوسوسة إلى النفوس، في هذا الموضع، فلمَ جعلتم كل ذلك إلى إبليس دون ما ذكر الله عز وجل، ألا قلتم: إن بعض ذلك من النفس وبعضه من إبليس!!

- المشاركة في الأموال:

قيل: كيف يُشارك الشيطان الناس في الأموال والأولاد، كما في قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾ [الإسراء: ٦]؟

الجواب: يُحمل الأمر في الآية على التهديد والوعيد، لا على الحقيقة، وهو أسلوب معروف في اللغة العربية، حيث يُستخدم صيغة الأمر للدلالة على التحذير أو التخويف، مثل أن تقول العرب للرجل: "اجهد جهدك" على وجه التهديد والوعيد، وتقول: "اذهبْ اقتُل فلاناً" و" واذهب اضرب فلاناً"، ولا يُراد به حقيقة القتل والضرب، بل تهديده بعواقب فعله، وقد نزل القرآن بلغة العرب وبلاغتها، ففُسِّرَ الأمر هنا بأنه تهديد من الله للشيطان بأن يُسلَّط على من يتبعونه، فيصبحون شركاء له في معصيتهم.

أما كيفية المشاركة: فهي ليست مشاركة حسية كالبشر، بل معنوية، وتتمثل في:

الأموال: بأخذها بغير حق كالربا، والسرقة، أو إنفاقها في المعاصي.

الأولاد: بإنجابهم من حرام كأولاد الزنا، أو تربيتهم على الضلال.

فطاعة الشيطان في المعاصي تجعل الإنسان شريكاً له في عواقبها، كقول السحرة لفرعون: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ**﴾[طه: ٧٢]، أي افعل ما تُريد، لكن عاقبته عليك.

وذكر العلماء وجهين لتفسير الآية:

الوجه اللغوي: أن صيغة الأمر هنا للتهديد، كقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه لطلحة والزبير: «اذهبا أخرجاها» - يعني عائشة -، يريد بذلك التقريع لهما، وهو لا يريد خروجهما بها تحاربه، ولا أن تعصي الله عز وجل، في خروجها من منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أمرها، عز وجل أن تقر فيه، وإنما هذا على حد التوقيف والتقريع، ومثله كثير في اللغة.

الوجه العملي: أن المعصية -كالربا أو الزنا - تجعل الإنسان شريكاً للشيطان في الإثم، فالأموال الحرام وأولاد الزنا ثمرةٌ لاتباعه.

وروي عن جريح عن مجاهد في قوله: ﴿**وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾ [الإسراء:٦٤]، قال: «ما أكل من مال بغير طاعة الله، وأولاد الزنا»[١].

فالمشاركة إذاً وعيدٌ بالعذاب، وتحذيرٌ من عاقبة الطاعة العمياء للشيطان.

---

(١) تفسير الطبري ج١٤ ص٦٦٠.

- الملازمة كقرين:

زعم مخالفونا أن لكل إنسان شيطاناً موكلاً بإغوائه، وذلك عندما أنكرنا عليهم قولهم بأن إبليس يضلل الخلق في كل مكان، فاحتجوا بأن له أعواناً يقومون بذلك نيابة عنه.

وقد اتفق أهل العدل، ممن تكلموا في هذا الباب، على أن الجن خلقوا دفعة واحدة ويموتون دفعة واحدة.

وبناءً على هذا، يلزم قولهم أن من مات من البشر بقي شيطانه بلا عمل ولا وظيفة!!

كما أنهم ادعوا أن لكل إنسان شيطاناً ملازماً له[١]، وهذا يناقض ما أخبرنا الله به؛ إذ خلق الجن للعبادة، لا للإغواء فقط!

فإن كان الأمر كما يزعمون، فهذا يعني أن الشيطان لا وظيفة له سوى الإغواء، فإذا مات الإنسان، بقي شيطانه عاطلاً بلا عمل، وهو قول فاسد لا يصح.

- عَقد إبليس على قافية الرأس:

رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ قال: «إن إبليس يأتي أحدكم فيعقده ثلاث عقد»[٢].

---

(١) روي في صحيح مسلم: «ما منكم من أحد، إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك؟ يا رسول الله قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» ج٤ص٢١٦٧.

(٢) صحيح البخاري ج٢ص٥٢.

وهذا من أعجب الأقوال، إذ كيف يُعقل أن يُعقد على الإنسان ثلاث عقد وهو لا يشعر بها، ولا يدري متى وُضعت عليه؟ فإن كان ذلك بسبب قلة حذره من إبليس، فهذا يعني أن التحذير منه بلا فائدة؛ إذ كيف يحذر الإنسان مما لا يدركه ولا يعلم كيف يقع عليه؟!

وهذا قول لا يستقيم، بل هو من كلام من لا عقل له، أو من يغالط عمداً ليتشبث برأيه، ولو كان باطلاً، ولا ينبغي مجادلة من كان هذا حاله، فالله المستعان.

ويُذكر أيضاً من قدرات إبليس مما لم يذكر في الكتاب ولكنها لازمة البطلان لما ورد في الكتاب من التحقيق والنقض لقدرات إبليس المتخيلة:

- **التأثير ساعة الولادة:**

رووا عن أبي هريرة أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد، غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب**))[١]، و((**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخا من نخسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمه**))[٢]، وفسروا بكاء الطفل عند الولادة نتيجة لتلك الطعنة أو النخسة.

قيل: هذه أخبار مكذوبة لا تصح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه عدة، عقلية ونقلية، أما العقلية فالطعن أو النخس المطلق للصغير أو الكبير ظلم؛ لأنه ضرر عار عن جلب منفعة أو دفع مضرة أعظم منه أو استحقاق، وأما النقل فلمعارضتها لنصوص القرآن الكريم وكذلك صحيح السنة النبوية.

---

(١) صحيح البخاري ج٤ص١٢٥.

(٢) صحيح مسلم ج٤ص١٨٣٨.

فيقال لهم: أخبرونا عن الطعن أو النخس هل إبليس مخير فيه أم مجبر؟

إذا قالوا: مخير.

قيل: هل ذلك الفعل طاعة لله أم معصية؟

فإن قالوا: هو طاعة لله عز وجل، لزمهم أن إبليس مطيع لله عز وجل في طعنه ونخسه للطفل المولود، والطعن أو النخس ظلم، والله تعالى حيكم، والحكيم، لا يفعل الظلم ولا يأمر به ولا يرضاه، قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّه لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[يونس:٤٤].

وإن قالوا: طعنه أو نخسه للطفل معصية لله تعالى.

قيل: كيف يمكن لإبليس الحقير الصاغر الحضور عند كل ولادة والقدرة على إيذاء كل مولود؟!

وإن قالوا: هو مجبر في ذلك.

لزمهم أن الله عز وجل، البريء من قولهم، أنه أجبر إبليس على ظلم كل مولود، وقد أخبرنا في كتابه أنه لا يظلم أحد ولا يأمر بالظلم ولا يرضاه، قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّه لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً**﴾[يونس:٤٤]، وقال عز وجل: ﴿**وَأَنَّ اللَّه لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[آل عمران:١٨٢]، وقال: ﴿**وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[ق:٢٩]، وقال: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[فصلت:٤٦].

ومما يؤكد بطلان هذه الأخبار وأمثالها ما توصل إليه العلم الحديث من أن سبب بكاء الطفل المولود هو كي يستطيع أن يتنفس وتتوسع رئتيه وتتطهر من السوائل والمخاط التي تملأها أثناء فترة الحمل، ولا يمكن أن يرد الشرع بما يخالف العلم الصحيح.

- **التأثير في التثاؤب:**

رووا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا قال: ها، ضحك الشيطان**))[١]، وعن أبي سعيد: ((**إذا تثاءب أحدكم، فليمسك بيده، فإن الشيطان يدخل**))[٢].

إذا كان التثاؤب من الشيطان وأن من لم يمسك بيده فإنه الشيطان يدخل فيه، فما حال الطفل المولود الذي يتثاءب كثيراً دون قدرته على منعه أو إمساك يده في فمه؟ أليس هذا تكليف ما لا يطاق ولا يمكن الحذر منه، وهذا ما لا يجوز على الله عز وجل في حكمته وحسن فعله وعدله، البعيد عن الجور والظلم أن يأمر بترك ما لا يقدر على تركه، وقد قال الله عز وجل، في كتابه ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[البقرة: ٢٨٦] و﴿**إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾[الطلاق: ٧].

ومن جانب آخر ليس من الحكمة والعدل أن يأمر الله بمدافعة ما هو في مصلحة الإنسان وخارج عن رغبته نحو التثاؤب، فالمعلوم أنه أمر طبيعي يحدث لدى البشر ومعظم الحيوانات، ويعتبر استجابة جسدية طبيعية لعدة عوامل مثل التعب والملل والحاجة إلى الأكسجين أو تنظيم درجة حرارة الدماغ.

- **البيات على الخيشوم:**

رووا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((**إذا استيقظ أراه أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثاً؛ فإن الشيطان يبيت على خيشومه**))[٣].

---

(١) صحيح البخاري ج٤ ص١٢٥.
(٢) صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٩٣.
(٣) صحيح البخاري ج٤ ص١٢٥.

الخبر يؤكد أن الشيطان يبيت على خيشوم كل نائم ابتداء، وكيف يمكن للإنسان أن يدرك الشيطان نائماً على خيشومه؟! لأنه لا يعقل إلا بإدراك الحواس الخمس، وقد صح أن الحواس لا تدرك إلا ما كان محسوساً؛ ولذلك سميت الحواس لحسها الأشياء كلها وإدراكها لها كلها؛ ولذلك لزمها التأديب والأمر والنهي والثواب والعقاب.

ثم هل الخيشوم محل للتنفس أم سكن للشيطان؟! وهل يعقل أن من لم يستنثر ثلاثاً يبقى الشيطان بايتاً في خيشومه! وماذا عن الإنسان الذي لا يستطيع الاستنثار كالمريض أو الطفل أو من لا يعلم ذلك؟!

فإن كان ثم شيء نهينا عنه وحُذّرنا عن مواقعته، وهو شيء لا تدركه الحواس فهذا تكليف ما لا يطاق ولا يعرف ولا يمكن الحذر منه، لغموضه فإنه لا يدرك أبداً؛ فهذا ما لا يجوز على الله عز وجل، في حكمته وحسن فعله وعدله، البعيد عن الجور والظلم أن يحذر العباد عن أمر لا يقفون له على كنه ولا يقفون له على صفة.

وهذا خبر لم يأت في كتاب ولا سنة صحيحة، ولا أجمعت عليه الأمة، وما ليس في الكتاب ولا في السنة الصحيحة ولا في الإجماع؛ فهو باطل؛ لأن الله عز وجل، يقول: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾[الأنعام: ٣٨] يعني من أمور الدين، وقال: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ [الحشر:٧]، وهذا فلم يخبرنا به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**لا تجتمع أمتي على ضلالة أبداً**)).

- **التأثير في الأذن:**

رووا عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم في رجل نام ليلة حتى أصبح: ((**بال الشيطان في أذنه**))(١).

قيل: هذه رواية لا تصح عن النبي ﷺ من وجوه عدة، عقلية ونقلية.

أما العقل، فإن البول من خصائص الأجسام المادية التي تتناول الطعام والشراب، والشيطان من عالم الجن، وهم ليسوا بأجساد مادية كالبشر، فلا يُتصور أن يكون له بول على المعنى المعروف.

فإن قيل: هو بول يليق بعالم الجن.

قيل: كيف يُتصور بول بلا جسم مادي؟ ثم إن كان ذلك الفعل مقصوداً به الإيذاء، فهل هو إيذاء حسي أم معنوي؟

إن قيل: هو إيذاء حسي، فكيف لا يشعر به النائم ولا يدركه؟

وإن قيل: هو إيذاء معنوي، كان ذلك مجازاً، وليس حقيقة، فيكون حمله على المعنى الحرفي خطأً.

ثم يُقال لهم: أخبرونا، هل الشيطان مخير في فعله هذا أم مجبر؟

إن قالوا: مخير، قيل: هل هذا الفعل طاعة لله أم معصية؟

فإن قالوا: طاعة، لزمهم أن الشيطان مطيع لله في فعله هذا، والله لا يأمر بالظلم ولا يرضاه، قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[يونس:٤٤].

---

(١) صحيح البخاري ج٢ص٥٢.

وإن قالوا: هو معصية، قيل: كيف يمكن للشيطان أن يبول في أذن كل من ينام عن صلاة الفجر؟ هل يتسع له الوقت لكل غافل؟ وإن كان ذلك لبعض الناس دون غيرهم، فما معيار اختياره؟

وأما النقل، فإن هذه الرواية لم ترد بأسانيد صحيحة، وذلك لمخالفتها للعقل ولا يمكن أن يرد نص نبوي مخالف للعقل والقرآن، ثم إن الشيطان ضعيف، قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً**﴾[النساء:٧٦]، ولا سلطان له على الإنسان: ﴿**وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ**﴾[الصافات:٣٠]، فكيف يكون ضعيفاً ولا سلطان له ويقدر على هذا الفعل المادي؟

وأما من جهة الواقع والعلم، فإن هذه الدعوى لا تتفق مع ما ثبت علمياً وعملياً عن طبيعة النوم وأسبابه، ولا يوجد دليل على أن أحداً قد شعر بأذى مادي من الشيطان بهذه الصورة، فلا يرد الشرع بما يخالف العلم الصحيح.

- التأثير في العلاقة الزوجية:

رووا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((**أما إن أحدكم إذا أتى أهله، وقال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فرزقا ولدا لم يضره الشيطان**))[(١)]، ورووا عن مجاهد: ((**إن الذي يجامع ولا يسمّي، يلتف الشيطان على إحليله فيجامع معه**))[(٢)]، ورووا عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**إن فيكم مغربون**)) قلت: يا رسول الله ما المغربون؟ قال: ((**الذين يشترك فيهم الجن**))[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري ج٤ص١٢٢.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج٩ص٢٢٩.
(٣) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ج٢ص٣٦٠.

قال الترمذي: «فللجن مساماة بابن آدم في الأمور والاختلاط، فمنهم من يتزوج فيهم، وكانت بلقيس ملكة سبأ أحد أبويها من الجن، وربما غلب الجن الآدمي على أهله فيأخذ بقلبها ويعذبها»(١).

قيل: هذا من أحول المحال؛ إذ يفترض أن الشيطان حاضراً في العلاقة الزوجية وقريباً من موضع الحمل، وقابلاً للزواج والانجاب من غير جنسه، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الذاريات:٤٩]، ويريد: «إنا خلقنا من كل صنف ذكراً وأنثى، ثم خلقنا منها نسل ذلك الصنف والمعنى، وأخبر سبحانه بأصل التناسل أنه من الزوجين»(٢)، وقال تعالى مبيناً حصر التناسل في بني آدم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء**﴾[النساء:١].

ثم القول بأن من لا يذكر ذلك الدعاء سيعاقب غيره وهو ولده ولا ذنب له، وهذا معارض للقرآن الكريم قال تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ [فاطر:١٨]، ويقال لهم: هل تجوز العقوبة من غير ذنب؟

فإن قالوا: تجوز من غير ذنب.

قيل: عقاب من لا ذنب له ظلم، والظلم قبيح، والله تعالى لا يفعل القبيح، قال تعالى: ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[آل عمران:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ**﴾[غافر:٣١].

وإن قالوا: يعاقب بذنب أبيه.

---

(١) المرجع السابق ج٢ص٣٦٠.

(٢) مجموع تفسير بعض الأئمة، تفسير الإمام الهادي خ.

قيل: كما تقضي العقول بقبح العقوبة من غير ذنب كذلك تقضي بقبح معاقبته بذنب غيره، فكما لا تجوز العقوبة من غير ذنب فكذلك لا تجوز بذنوب الآباء، وقد قال تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[فاطر:١٨]، وقال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[المدثر:٣٨].

- الدخول في الإنسان:

قيل: إن الشيطان يدخل في جسد الإنسان، ويجري في عروقه، ويتحكم في حواسه، وهذا قول لا يصح من جهات عدة، عقلية ونقلية.

أما من جهة العقل، فقد بيَّن العلماء بطلان هذا الادعاء، قال الإمام الهادي يحيى بن الحسين – المتوفى سنة ٢٩٨هـ -: «لا يجوز أن يدخل جسم في جوف جسم، فيجري في عروقه، ويجتمع في بدن واحد روحان، روح ساكن وروح متحرك. هذا محال، أن يستجن في جسم واحد روحان، ولا يدخل في جسم جسم؛ لأن هذا لا يعرف في الأجسام ولا يتهيأ، ولا يثبت في العقول، فلما لم تقبله العقول استحال أن يكون شيئًا معقولاً».

فإن قيل: الشيطان كائن غير مادي، فلا يسري عليه ما يسري على الأجسام.

قيل: إن كان كذلك، فكيف يدخل في جسم الإنسان؟ وكيف يتحكم في جوارحه؟

فإن قيل: هو مخلوق من نار.

قيل: وكيف يجتمع جسم ناري مع جسم طيني دون أن يظهر أثر الاحتراق؟

قال الإمام المرتضى محمد – المتوفى سنة ٣١٠هـ -: «وكيف يكون ذلك أو يجتمع روحان في بدن كذلك؟ والجن نارية والإنس طينية، وقياس الضد باين، والنار والطين متباينان، ولو اجتمعا لظهر الاحتراق بأضعفهما، ولو كان ذلك

كذلك، وكان إبليس من المقدرة بمثل ذلك حتى يتمكن من الإنسان ويغلب على جميع الحواس والأركان، لكان ابن آدم مقهورًا مضطهدًا مقسوراً، إذ تمكن منه ما لا يستطيع منعه، ولكان عند الله معذورًا؛ إذ ليس له اختيار ولا يقدر على ائتمار».

وأما من جهة النقل، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يرد فيهما دليل صحيح صريح على أن الشيطان يدخل في جسد الإنسان على الحقيقة، بل ورد أن ضعف الشيطان، قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً**﴾ [النساء:٧٦]

فإن كان ضعيفاً، فكيف يكون له هذا التمكن المطلق من بني آدم؟

ثم يقال: هل الإنسان مسؤول عن أفعاله أم لا؟

فإن قيل: مسؤول.

قيل: كيف يُحاسب على أفعال يفعلها الشيطان بجسده دون إرادته؟

وإن قيل: غير مسؤول، فقد انتقضت التكليفات الشرعية كلها، وبطل الحساب والعقاب، وهذا باطل بالنقل والعقل.

وأما من جهة الواقع، فإن العلم لم يثبت إمكانية دخول كائن ناري في جسد مادي دون أن يظهر له أثر محسوس، ولا أن تؤثر روحه في روح الإنسان بهذه الصورة.

وقال الإمام الحسين العياني – المتوفى سنة ٤٠٤هـ -: «والجان فلا يتهيأ له الدخول، ولا يمكنه الملابسة والحلول».

فكيف يقال بعد ذلك إن الشيطان يدخل في جسد الإنسان ويتحكم فيه؟ هذا زعم لا يثبته النقل الصحيح، ولا يقبله العقل السليم، ولا يؤيده الواقع المحسوس.

الفرع الرابع: هل أقدر الله إبليس وهو عدوه على مالم يعطه لأوليائه:

وهنا يرد الإمام الناصر على من يزعم أن إبليس يمتلك قدرات خارقة، قائلاً:

إن قالوا إن الله عز وجل مكّن إبليس من ذلك وأعطاه القدرة عليه، فهذا يلزمهم بأن الله منح عدوه، الذي عصاه وخالف أمره، قوة وسلطاناً يفوقان ما أعطاه لأوليائه من الأنبياء والمرسلين، وبهذا يكون قد رفع إبليس إلى منزلة شريفة ومرتبة رفيعة تساوي أو تتجاوز منزلة أولياء الله ورسله، مما يمكنه من إيذائهم وإحراق قلوبهم بحكم قوته وسلطانه.

فلو صح قولهم، لكان إبليس أرفع شأناً من جميع المخلوقات، سواء المطيع منهم أو العاصي، ولكان أعظم خطراً وأعظم عطاءً، متفوقاً بذلك حتى على الأنبياء والمؤمنين، لأنه نال من الله ما لم ينله أهل الطاعة والعبادة.

وأي ضلالة أعظم من هذه؟ وأي افتراء أكبر من زعمكم أن الله خص إبليس بهذه القوة والقدرة، بينما حرم منها رسله وأولياءه ومن يسعون في طاعته؟! كيف يُعطى هذا الفضل لمن كفر بالله واستكبر، وقال: ﴿**لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**﴾[الحجر: ٣٣]؟!

فبحسب زعمكم، استحق إبليس أن يُمكن من سلطان عظيم على خلق الله الضعفاء، الذين أُمروا بالحذر من اتباعه.

تنزه الله وتعالى عما يصفه المبطلون، وجلّ شأنه علواً كبيراً.

المبحث الثالث

السحر وحقيقته

السحر من الظواهر التي ارتبطت بالإنسان منذ أقدم العصور، حيث اعتُبر وسيلة للتأثير في الواقع بطرق خفية وغير تقليدية، وتناولته الأديان بالنهي أو التحذير، وناقشته الفلسفات القديمة في سياقات مختلفة، كما كان جزءاً من الموروث الثقافي والشعبي، وتعددت أشكاله بين الطقوس والتعاويذ والممارسات التي تهدف إلى تحقيق غايات معينة، وفي هذا المبحث نستعرض حقيقته، وتاريخه في الحضارات المختلفة، والإجابة عن العديد من الأسئلة حوله.

المطلب الأول: مفهوم السحر وتاريخه:

الفرع الأول: مفهوم السحر:

قال الراغب الأصفهاني – المتوفى سنة ٥٠٢هـ-: «السحر يقال على معانٍ:

الأول: الخداع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عمّا يفعله لخفّة يد، وما يفعله النمّام بقول مزخرف عائق للأسماع، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿**سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ**﴾[الأعراف:١١٦]، وقال: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾[طه:٦٦]، وبهذا النّظر سمّوا موسى عليه السلام سَاحِراً فقالوا: ﴿**يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ**﴾[الزخرف:٤٩].

الثاني: استجلاب معاونة الشّيطان بضرب من التّقرّب إليه، كقوله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾

[الشعراء:٢٢٢]، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ [البقرة:١٠٢].

الثالث: ما يذهب إليه الأغتام(١)، وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوّته يغيّر الصّور والطّبائع، فيجعل الإنسان حمارا، ولا حقيقة لذلك عند المحصّلين»(٢).

وقال الرازي – المتوفى سنة ٦٠٦هـ-: «ذكر أهل اللغة أنه في الأصل عبارة عما لطف وخفي سببه»(٣).

وقد يطلق (السحر) على معانٍ حسنة إذا قيد نحو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((**إن من البيان لسحراً**))، وتارة دقّة فعله حتى قالت الأطباء: الطّبيعية ساحرة، وسمّوا الغذاء سِحْراً من حيث إنه يدقّ ويلطف تأثيره.

الفرع الثاني: تاريخ السحر:

يُقال إن كلمة "السحر" مشتقة من الكلمة اليونانية "ماجيا"، التي استُخدمت في الأصل للإشارة إلى الطقوس والمراسم التي يؤديها الكهنة المعروفون باسم "الماجو" أو "المجوس"، وهم كهنة من الشرق يُعتقد أنهم من الكلدانيين، إحدى الممالك البابلية الواقعة جنوب العراق أو في بلاد فارس(٤)، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الارتباط في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا**

(١) الأغتم: من لا يُفصح شيئاً.
(٢) المفردات في غريب القرآن ص٤٠٠-٤٠١.
(٣) تفسير الرازي ج٣ص٦١٩.
(٤) السحر ص٨.

الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ[1] عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢]، حيث تُفسر "هاروت" و"ماروت" باللغة النبطية على أنهما قريتان في بابل - جنوب العراق- مع حاكميهما.

فبعد نشوئه في الشرق كيف ومتى انتقل إلى الغرب؟ يرى المفكر الروماني (بلينيوس الأكبر) – ٧٩م – في محاولة لدراسة تاريخ السحر في كتابه (التاريخ الطبيعي) أن هناك إجماعًا على أن السحر نشأ في بلاد فارس مع ظهور (زرادشت)، واستناداً إلى حسابات العالم الإغريقي (إيودوكسوس) -٣٥٥ ق.م- والفيلسوف (أرسطو) -٣٢٢ ق.م-، قدَّر(بلينيوس) أن (زرادشت) عاش قبل ستة آلاف عام من زمن أفلاطون، الذي وُلد في القرن الخامس قبل الميلاد.

لكن السحر لم يجد طريقه إلى الغرب إلا خلال الحملة الحربية الفاشلة التي شنها الملك الفارسي (خشايارشا) – ٤٦٥ق.م- على الإغريق عام ٤٨٠ قبل الميلاد، وقد رافقه ساحر يدعى (أوستانا) – يعتقد (بلينيوس) أنه أول من دوّن السحر، ونشر معه الاعتقاد بالسحر أينما حل.

ويرى (بلينيوس) أن هذا أدى إلى افتتان الإغريق بالسحر، ويشير إلى أن شخصيات مثل (فيثاغورس) و(أفلاطون) و(إيمبيدوكليس) و(ديموقريطوس) سافروا إلى الشرق بحثاً عن معرفة أعمق عن السحر الذي نشره (أوستانا) ورفيقه المجوسي، والذين يصفهم (بلينيوس) بالمحتالين والأحمقين[2].

---

(١) تقرأ بكسر الزاي وفتح اللام، وليس بالفتح لأن في ذلك نسبة السحر الذي كان ببابل هاروت وماروت إلى الله كونه أنزله عليهما.

(٢) السحر ص٣٧-٣٨.

المطلب الثاني: حقيقة السحر:

الفرع الأول: حقيقة السحر في الفكر الإسلامي:

اختلف المسلمون فيه هل له حقيقة أم لا؟ فقالت العترة - أهل البيت-، والمعتزلة، وأكثر الفقهاء: لا حقيقة له، وقال المازري – المتوفى سنة ٥٣٦هـ-: «[مذهب] أهل السنة وجمهور العلماء من الأمة على إثبات السّحر، وأن له حقيقةً كحقائق غيره من الأشياء الثابتة»(١).

ومن يرى أن له حقيقة يرى أن له تأثيراً من خلال الشياطين وذلك بتسخيرهم للإضرار بالآخرين، بناء على فرضية أن الشيطان يدخل جسم الإنسان ويجري فيه مجرى الدم، فينتج عن ذلك كما قال الشيخ محمد العثيمين – المتوفى سنة ١٤٢١هـ- لما سئل عن هل يؤثر السحر لدرجة أنه يوقف مشروع الزواج؟ قال: «...فإن السحر يؤثر في المسحور، يؤثر في عقله وفي بدنه وفي فكره وفي اتجاهه..»(٢)، وقال قبل ذلك بقرون عديدة ابن الوهان الكوفي عن قدرات إبليس: «إن إِبْلِيس اللَّعين يَتَمَكَّن من الإنسان، وينزل منه بمنزلة العروق في جميع الأركان، فيشاركه عقله، ويغلبه على رأيه، ويعمل بيده ويبطش، ويخطر برجله ويكمش، حتى يكون الإنسان بمازجة إبليس، يُقبِل ويسعى في طاعته ويدبر».

واحتج الأولون المنكرون لحقيقة السحر بوجوه:

أحدها: أن متعاطي السحر يدعي أنه يقدر بواسطة السحر على ما لا يقدر عليه إلا الله، وقد عُلِمَ أنه لا يقدر على خلق الأجسام والألوان والطعم والحياة إلا الله جل وعلا، وإذا كان المراد كذلك بطل أن يكون للسحر حقيقة وتأثير.

---

(١) المُعْلم بفوائد مسلم ج٣ص١٥٨.

(٢) فتاوى نور على الدرب ج٤ص٢.

الوجه الثاني: أنا لو جوزنا كون للسحر حقيقة وتأثير لتعذر الاستدلال بالمعجزات على النبوة؛ لأنه لا يمكننا القطع بأن هذه الخوارق التي ظهرت على الأنبياء صادرة عن الله تعالى، بل يجوز أن مدعي النبوة أتى بها من جهة السحر.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١٠٢].

الوجه الرابع: أن الله سماه خيالاً فقال: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾ [طه:٦٦] والخيال لا حقيقة له.

الوجه الخامس: أن الله تعالى أكد عدم فلاح الساحر من أي وجه بقوله: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**﴾[طه:٦٩].

احتج أهل القول الثاني وهم القائلون بأن للسحر حقيقة بوجوه:

أحدها: أنه قد يكون سبباً لحصول الضرر كالقتل وتغيير العقل وهذا معلوم، وقد قال تعالى: ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[البقرة:١٠٢]، والاستثناء يدل على حصول الآثار بسببه.

ويرد على هذا الاحتجاج: أن الاستثناء عائد إلى الله تعالى وهو لا ﴿**يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾[الزمر:٧]، ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ**﴾ [غافر:٣١]، ﴿**وَاللَّه لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾[البقرة:٢٠٥].

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾[الفلق:٤]، والنفاثات هن السواحر إذا رقين ونفثن في العقد(١).

---

(١) تفسير ابن كثير ج٨ص٥٣٦.

ويرد على هذا الاحتجاج: أن تفسير النفاثات بالساحرات والتعوذ منهن غير سليم لأن السحر أولاً لم يثبت له حقيقة، وأيضاً هذا التفسير يقوم على فرضية حصر تأثير السحر بالساحرات الإناث دون الذكور والمعلوم لدى المثبتين أن السحر مقدور لكلا الجنسين، والتفسير الصحيح لهذه الآية الموافق للعقل والقرآن هو: أن النفاثات هن النساء المهيمنات على الرجال والعُقَد عقد الرجال، وهي عزائمها وأمورها، يعني أن النساء بما يسكن قلوب الرجال من حبهن، فبطاعتهن يتصرفون على حسب رضاهن وكلامهن وحيلهن، ويحملنهم على أمور فاسدة، وبما يضر بالدين والدنيا، وينصرفون عن أمور صحيحة، وعزائم بأمرهن، فأمر الله بالتعوذ منهن، ونظيره قوله: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾[التغابن:١٤][(١)]، والواقع اليوم يؤكد صحة هذا التفسير فكم من امرأة تسببت بتمزيق أسر وتشريدها بل وافتعال الفتن والاقتتال.

وأيضاً كَم مِن امرأة - نتيجة عشق الرجل لها - تسببت في تغيير مجرى حياته تحسيناً أو تقبيحاً من ذلك ما روي عن ملك الساساني (بهرام جور) - المتوفى سنة ٤٣٨م - أن له ولد رشّحه للملك وهو ساقط الهمة، نازح المروءة، دنيء النفس، سيء الأدب، لا يطيع أمراً، ولا يرهب زجراً، فكان يحزنه ذلك ووكل به من يلازمه من المؤدبين والحكماء، ولم يتغير حاله عما كان عليه من سوء أدبه، حتى قال أحد مؤدبيه لأبيه: كنا في أمره بين يأس ورجاء حتى حدث الآن ما حقق اليأس من فلاحه، وأوجب انقطاع الطمع من صلاحه.

---

(١) التهذيب في التفسير ج١٠ ص٧٦٠٣.

فقال أبيه الملك: وما الذي حدث؟ فقال: إنه رأى ابنة فلان فعشقها حتى غلبت عليه، فهو لا يهذي إلا بذكرها، ولا يتشاغل إلا بأمرها، فقال له الملك: «الآن رجوت صلاحه»، وتحققت فلاحه، فطلب من أبي البنت أن تراسله وتخبره بأنها لا يمكن أن تستمر في مواصلته كونه لا يصلح للملك لصفاته السابقة، فأخذ - نتيجة لذلك - في طلب الأدب والحكمة والفروسية واللعب بالكرة والرمي بالسهام حتى اشتهر بذلك وعُرف به، وتغيرت حياته رأساً على عقب، فسُرّ أبيه بذلك وذكر له بأن الفضل يعود إليها وقال: فأنا أمرتها بذلك، وهي من أعظم الناس عليك منّةً، لِما دعتك إليه من طلب الحكم والتخلق بأخلاق الملوك التي تصلح معها للملك من بعدي، فزدها من التكريم والتشريف، ففعل الفتى ذلك، وعقد له أبوه الملك من بعده(١).

وكم من ملك قاهر، وسلطان قادر، تذل لهيبته الأملاك، وتذعن لسطوته الفتاك، هدم الهوى أركانه، وأذل عزه وسلطانه، قال المهدي العباسي – المتوفى سنة ١٦٩هـ- في جارية له:

أَمَـــا يَكْفِيـــكِ أَنَّـــكِ تَمْلِكِينِـــي ... وَأَنَّ النَّـــاسَ كُلَّهُـــمْ عَبِيـــدِي؟

وَأَنَّـكِ لَـوْ قَطَعْـتِ يَـدِي وَرِجْـلِي ... لَقُلْتُ مِـنَ الرِّضَـا أَحْسَـنْتِ زِيـدِي

وقال أحد ملوك الأندلس:

ظَـلَّ مِـنْ فَـرْطِ حُبِّـهِ مَمْلوكـا ... ولقـد كـان قَبْـلَ ذَاكَ مَلِيكـا

تَرَكَتْـه جـاذر القصـر صَـبًّا ... مُسـتهاما عـلى الصَّـعِيدِ تَرِيكَـا

(١) نفائس الأعلاق في مآثر العشاق ص٤٥-٤٦.

وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعرضه ونفسه، وضيّع أهله ومصالح دينه ودنياه، ووقع فيما يأباه، وكم عاشق هرب من الحب إلى مواقف التلف ليتخلص من التلف بالتلف(١).

الوجه الثالث: ما روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم سحر وأن السحر عمل فيه وقال إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، وأن سحره كان في مشط ومشاطة وخف طلعة ذكروا، وأنه في بئر وأن البئر دفنت وذلك فيها، وأنه لم يخرجه لئلا تثور على الناس منه شرة، أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم من حديث عائشة، وهو صريح في أن السحر أشياء دفنت ثم أخرجت والتأثير للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقع بسببها.

ويرد على هذا الاحتجاج من العقل والقرآن: أما العقل فالقول بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سحر باطل عقلاً؛ لأنه يبطل المعجزات بل يبطل إثبات الصانع، إذ لو جاز ذلك لجاز أن يقال: إن ساحراً خلق السماوات، وأما القرآن فقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[المائدة:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**﴾ [يونس:٧٧]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**﴾[طه:٦٩].

الوجه الرابع: ما أخرجه أحمد، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن عن عائشة أنها قالت: قدمت علي امرأة من دومة الجندل وذكرت الحديث بطوله، وفيه أن تلك المرأة تعلمت السحر من هاروت وماروت وأنها بعد تعلمه ما تريد شيئاً إلا كان، وفيه أنها بذرت قمحاً فقالت

(١) ديوان الصبابة ص٢٨.

ابذري فبذرت وقالت أطلعي فطلعت إلى أن قالت ثم قالت ايبسي فأيبست ثم قالت اطحني فأطحنت... الخبر، وفي رواية الرازي أنها قالت: وأنا لا أريد شيئاً أصوره في نفسي إلا حصل(١).

والرد على هذا الاحتجاج: أن هذه الرواية ظاهرها البطلان، وذلك من إضافة الخوارق التي لا يقدر عليها إلا الله إلى امرأة ساحرة، وما سبق من الآيات مؤكدة على بطلانها.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يفيد الحرمان من الجنة لمن يؤمن بتأثير السحر، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُؤْمِنٌ بِسِحْرٍ**))(٢)، وروي بلفظ آخر عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُصَدِّقٌ بِسِحْرٍ**))(٣)، وهذا يؤكد أنه لا حقيقة للسحر، وأنه لا يجوز للمسلم أن يصدق بوجود حقيقة للسحر وتأثير؛ لأنه يؤدي إلى الشرك بالله، لما فيه من تصديق لقوى غير الله، وهذا ينافي التوحيد الذي هو أساس الدين الإسلامي؛ ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[آل عمران:١٨].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج١٧ ص١٧٨.

(٢) تفسير مفتاح السعادة ج٦ ص٣٩٤٢-٣٩٤٨.

(٣) مساوئ الأخلاق للخرائطي ص٣٤٩.

[رؤية القرآن للشيطان وتأثيره]:

عند استقراء آيات القرآن الكريم المتعلقة بذكر الشيطان وتأثيره وجدنا ما يلي:

- قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾[الأعراف:٢٧]، والتحذير هنا يفيد بأن لبني آدم القدرة على تجنب فتنة الشيطان أو الوقوع فيها.

- قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:١٦٩]، لو لم يقدروا على ترك إتباعه ما قال لهم: ﴿**لاَ تَتَّبِعُوا**﴾.

- قال تعالى حاكياً عن إبليس قوله: ﴿**ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف:١٧]، وهي محاولة إغوائهم من كل جهة، وهذا تمثيل لاحتيال الشيطان لإغواء الإنسان من أي جهة يجدها مدخلاً على الإنسان.

أما كيف متابعته أو الوقوع في فتنته؟ فعن طريق اتباع الإنسان للهوى لا بالمخالطة والممازجة ولا الكلام، فبذلك يخرج الإنسان من الطاعة إلى المعصية.

- قال تعالى: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً**﴾[النساء:٧٦]، وهذا يثبت أنه ليس له قوّةٌ على الإنسان ولا له حيلة في الدخول في صدر الإنسان أو إجباره على ما لا يريد.

- قال تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ [الحجر:٤٢]، وهذا غاية العجز نفي سلطانه على جميع العباد إلا من اتبعه فقد جعل عليه سلطان باختياره.

- ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[إبراهيم:٢٢]، وهذا تأكيداً لما سبق.

الفرع الثاني: حقيقة السحر في علم النفس:

علم النفس هو الآخر يرى بأن السحر خرافة، ويرى عالم النفس (جوستاف جاهودا) أنه يعود إلى مجموعة من المعتقدات التي كانت على حد تعبير: «باطلة بطلانًا واضحًا وقابلًا للإثبات»، وبناء على ذلك فإن الإيمان به يعبر عن سلوك نفس شاذ، ومع ذلك يرى (جاهودا) أن بعض الخرافات يصعب على العلم برهنة زيفها، وأن ذلك الزيف نفسه «دائماً ما يكون ذا صلة بوضع معرفي معين».

«هناك بعض الروابط بين التفكير السحري والطقوس والاضطراب النفسي، ولعل الاضطراب الوسواسي القهري أوضح مثال على ذلك؛ إذ يقوم المصابون بهذا الاضطراب بأنشطة متكررة، مثل: التحقق من أن الباب مغلق، أو يتسمون بنمطية التجنب مثل: عدم المشي فوق الشروخ الموجودة بالرصيف نظراً لخوفهم من أن يؤديَ عدم التزامهم بهذه الطقوس إلى نوع من سوء الطالع. في بعض الأحيان يتخذ سوء الطالع صورة محددة، مثل وفاة أحد أفراد العائلة، لكنه كثيرًا ما يكون غير محدد. لَكِنِ المصابون باضطراب الوسواس القهري لا يقومون بطقوسهم لتعزيز حسن طالعهم. والخرافات - من منظور الأطباء

النفسيين - لا يمكن تفسيرها بأنها شكل من الأمراض النفسية بوجهٍ عام؛ وذلك لأنها شائعة للغاية على صورة معتقدات وممارسات»[١].

يرى (ميشيل دي مونتين) -١٥٩٢م- بأن القصص حول الأعمال السحرية المذهلة التي اتَّهم بعض السحرة بارتكابها - والتي اعترفت بها بعض الساحرات المشتبه في ممارستهن للسحر – في أغلب الأحيان تكون نتاج الخيال؛ فقد كتب مونتين بعد زيارة مجموعة من النساء العجائز المدانات بتهمة السحر يقول: «في نهاية الأمر – وبكل صدق – ما كنت لأصف لهن نبات الشوكران السام، وإنما زهرة الخربق»، يقصد بذلك أنهن يستحققن العلاج لا الموت، ويستطرد مونتين مستشهداً بالمؤرخ الروماني (تيتوس ليفي)-١٧م- : «إن حالتهن تبدو أقرب إلى نوع من الجنون منه إلى سلوك إجرامي».

وقدم الطبيب الهولندي (يوهان فاير) في كتابه (عن السحر) نقاشات مفصلة تذهب إلى أن الخدع التي تمارسها الساحرات فيما يتعلق بقدرتهن السحرية ناجمة عن تخيلات وهلاوس، ويرى (فاير) و(ديلا بورتا) وغيرهما أن بعض هذه الحالات الهذيانية ناجمة عن نباتات سامة ومخدرة، كان البعض يظنون أن هؤلاء السحرة المدعين يستخدمونها في تحضير مراهمهم وممارسة طقوسهم - ونبات الشوكران أحد هذه النباتات - التي كانت السبب في منحهم إحساساً بالتحليق عالياً.

وقد يكون الناس الذين اعتقدوا أنهم تعرضوا للسحر قد تناولوا - دون قصد - من هذه المواد المخدرة؛ إذ يحكي (فاير) أن امرأة أطعمت من يعملون لديها خبزاً من طحين الجاودار، وبعد أن تناولوه (أصابهم مس من الجنون)

(١) السحر ص٦١-٦٧.

وغطوا في سبات ممتد وعميق، وحينما توقفت عن إطعامهم خبز الجاودار، تعافَوْا من هذه الأعراض. فربط (فاير) بين هذه الأعراض وخبز الجاودار، لكن ما لم يكن يعلمه هو والمرأة أن العمال – على الأرجح – تناولوا الفطريات التي تنمو على نبات الجاودار والمعروفة باسم (الأرجوت)، الذي يحتوي على بعض الخصائص التي تسبب الهلوسة، والذي استُخرج منه في القرن العشرين عقار الهلوسة المعروف بثنائي (إيثيل أميد) حمض الليسرجيك (إل إس دي).

وقد أدى اكتشاف هذه الحقيقة إلى تفشي الدعوات التي ترى أن خيالات اجتماعات السحرة – المعروفة باجتماعات السبت – وأوهام التحرر من المس على أيدي السحرة يمكن عزوها جميعاً إلى التسمم بـ(الأرجوت)، لكن التفسير الرئيسي – كما كان يرى (فاير) يدرك جيداً – الذي يبرر اعترافات السحرة بالعربدة الشيطانية هو التعذيب الذي تعرضت له الكثير من المتهمات بممارسة السحر في أوروبا وفي اسكتلندا، فقد انتزعت الاعترافات القسرية ما أراد الجلادون سماعه من السحرة، من خلال طرح الأسئلة التوجيهية التي توحي بالإجابات التي يريد السائل سماعها.

وقد حدد (فاير) وغيره أن الحالة المعروفة بالكآبة مصدر رئيسي للإيمان بالسحر، وفي حين أن هذه الفئة الطبية من الأمراض العقلية التي ظهرت في أوائل العصر الحديث تشمل ما نطلق عليه اليوم الاكتئاب، فقد كان ينظر إليها أيضاً من منظور فلسفي وأدبي وقانوني وروحي أوسع، وكان نبات الخربق يُستخدم لعلاج بعض أعراض الاكتئاب، وأيضاً لدرء الساحرات والأرواح الشريرة التي كان يُظن أنها قادرة على إصابة الفرد بالكآبة، وكان يُعتقد أن النساء

– لا سيما العجائز منهن – أكثر عرضة للكآبة من غيرهن؛ وبالتالي أكثر عرضة للاعتقاد بأنهن الْتَقين في خيالاتهن البائسة بالشيطان.

وفي القرن التاسع عشر، عزز مجال الطب النفسي من قوة الربط بين النساء والاضطراب العقلي والسحر؛ فقد حلل الطبيب النفسي الفرنسي الرائد (جان مارتن) – ١٨٩٣م – وزملاؤه في مستشفى (سالبتريير) للأمراض العقلية للسيدات في باريس؛ الروايات التي روتها المدانات بالسحر في المحكمة عن المس والشعوذة ومشاعر النشوة التي أحسسن بها، فاكتشفوا أوجه تشابه واضحة بين ما وصفنه، والأعراض (الهيستيرية) التي تعانيها المريضات من السيدات. وهكذا نشأ مفهوم (الاعتلال الشيطاني) أو حالة المس الشيطاني باعتبارها نوعاً من الجنون، وقد أشاد (شاركو) وأعضاء الوسط الطبي النفسي الأوائل بـ(فاير) باعتباره أول طبيب نفسي، الأمر الذي يجعله طبياً سبق عصره بكثير(١).

المطلب الثالث: سؤال وجواب عن السحر:

توجد مجموعة من التساؤلات التي يطرحها عامة الناس، وخاصة البسطاء فكرياً، والتي تؤثر في مدى تقبلهم لنفي حقيقة السحر، وسنعرض هذه التساؤلات هنا مع توضيح حقيقتها من منظور علمي كما يلي:

السؤال الأول: قيل لإثبات وجود تأثير حقيقي للسحر قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا**

(١) السحر ص٦٦-٦٣.

مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ...﴾[البقرة:١٠٢].

الجواب: ليس في الآية إثبات ما ذهبوا إليه من واقعية للسحر وتأثير، الآية تحكي عن اليهود وما زعموا من تأثير للسحر في ملك سليمان، وأكذبهم الله تعالى بذلك، وبيان ذلك:

قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُواْ**﴾ أي اليهود؛ بدليل الآية التي قبل وهي قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:١٠١].

﴿**مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ**﴾ كذباً وافتراء ﴿**عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ بقولهم أنه نال الملك بواسطتهم من خلال ما يسمى بالسحر.

﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ**﴾ أي بتصديق أن للشياطين تأثيراً في تحصيل الملك، ﴿**وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ**﴾ أي بادعائهم ذلك كذباً وافتراءً.

﴿**يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ أي شياطين الإنس والجن ادعاء الخوارق التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى بالتمويه والتخييل.

﴿**وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**﴾ الملكين وصف أطلقه الناس على (هاروت) و(ماروت) لما رأوا من صورهما أو قدرتهما الخارقة في نظرهم تحت مسمى السحر، ونظير ذلك ما قيل في يوسف عليه السلام: ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾[يوسف:٣١]، فنفى الله تعالى أن شيئاً مما يعلمونه تحت مسمى السحر لم ينزله ولا يرضاه، وفائدة النفي هو تصورهم أن من كان ملَكاً حقيقة لا بد وأن يكون منزل عليه من الله تعالى، وهاروت وماروت بشر ليسوا ملائكة.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ أي (هاروت) و(ماروت) ما يعلمان الناس من فنون الخداع والتمويه تحت مسمى السحر يخبرانهم أن تعلم ذلك فتنة مؤدية إلى الكفر، وذلك من خلال ادعاء المتعلم الخوارق التي لا يقدر عليها إلا الله وتصديق العوام له بذلك.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ يتعلمون من (هاروت) و(ماروت) من الحيل والتمويه ما يسبب الفرقة بين الرجل وزجته.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي بعلم الله؛ لأن الإذن له معنيان: العلم والأمر، والله تعالى لا يأمر بالإضرار، ومن الإذن بمعنى العلم قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إلا بِإِذنِ اللَّهِ﴾[التغابن:١١]، أي بعلم الله، وقوله: ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾[الأنبياء:١٠٩]، أي أعلمتكم، وقوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[البقرة:٢٧٩]، أي اعلموا أنكم إن لم تقلعوا من الربا صرتم حرباً لله ولرسوله.

وبمعنى الأمر، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلا بِإِذنِ اللَّهِ﴾ [يونس:١٠٠]، أي بأمر الله، لولا أن الله أمرها بالإيمان لم تؤمن، ولكن جعل في الإنسان العقل ثم أمره بالإيمان فآمن بإذن الله وأمره.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ...﴾[البقرة:١٠٢].

السؤال الثاني: قيل لتأكيد دخول الشيطان في الإنسان تغير صوته أثناء القراءة عليه أو ظهور الحالة والتحدث بكلام مغاير لصاحبه؟

الجواب: لفهم هذه الظاهرة علمياً، يجب تحليلها من منظور العلوم العصبية، وعلم النفس، والتأثيرات الثقافية والاجتماعية:

أولاً: تفسير الظاهرة من منظور العلوم العصبية:

يؤكد علم الأعصاب أن التغيرات في الصوت أو الشخصية يمكن تفسيرها من خلال نشاط الدماغ والاضطرابات العصبية، دون الحاجة إلى افتراض كيان خارجي يدخل الجسد، ومن أهم العوامل التي قد تؤدي إلى هذه الأعراض:

١- اضطراب الفص الصدغي (Temporal Lobe Dysfunction): الفص الصدغي مسؤول عن اللغة، المشاعر، والإدراك الحسي، فأي خلل فيه، مثل نوبات الصرع الجزئي المركب، قد يؤدي إلى تغيرات في النطق والسلوك، بما في ذلك إصدار أصوات غير مألوفة أو التلفظ بكلمات غريبة.

٢- الاضطرابات الحركية اللاإرادية (Involuntary Motor Disorders): يمكن أن تؤدي بعض الحالات العصبية، مثل متلازمة توريت، إلى إصدار أصوات تلقائية أو تبدل مفاجئ في نبرة الصوت.

ثانياً: التفسير النفسي للظاهرة:

يقدم علم النفس تفسيرات مقنعة للظواهر المشابهة لأعراض ما يسمى "المس" من خلال دراسة الاضطرابات النفسية وآليات عمل الدماغ تحت الضغط، ومن أهم هذه التفسيرات:

١- اضطراب الهوية التفارقي (Dissociative Identity Disorder - DID): يُعد DID اضطراباً نفسياً معقداً ينتج غالباً عن صدمات نفسية شديدة، خاصة في مرحلة الطفولة، ويتميز هذا الاضطراب بوجود اثنتين أو أكثر من الشخصيات المنفصلة داخل الفرد، لكل منها ذاكرتها وسلوكها وطريقة كلامها، قد تظهر إحدى هذه الشخصيات تحت ظروف معينة، مثل التعرض لضغط نفسي شديد أو محفزات معينة، مما يفسر التغير المفاجئ في الصوت والسلوك.

٢- قابلية الإيحاء (Suggestibility) والتنويم الإيحائي (Hypnosis): أثناء جلسات "الرقية"، يكون الشخص غالباً في حالة من الترقب والتوتر، مما يجعله أكثر عرضة للإيحاء، والتنويم الإيحائي حتى وإن كان بشكل غير مقصود، يُمكن أن يُؤدي إلى تغيرات في السلوك والكلام وحتى في نبرة الصوت، حيث يُصبح الشخص أكثر استجابة للاقتراحات الخارجية، وفي هذه الحالة قد يتبنى الشخص دون وعي سلوكيات وأصواتاً تتماشى مع توقعات المعالج أو المحيطين به، خاصة إذا كان هناك اعتقاد مسبق بإمكانية حدوث "المس".

٣- الهستيريا الجماعية (Mass Psychogenic Illness): في البيئات التي تؤمن بحدوث المسّ، قد تنتشر حالات التأثر النفسي بين الأفراد، مما يجعلهم يظهرون استجابات متشابهة دون وعي.

ثالثاً: التأثير الثقافي والاجتماعي:

تلعب العوامل الثقافية والاجتماعية دوراً هاماً في تشكيل فهمنا للظواهر النفسية وتفسيرها، فيلاحظ أن ظاهرة "المس" تنتشر بشكل أكبر في المجتمعات التي تؤمن بوجودها وترجعها إلى أسباب خارقة للطبيعة، بينما تصبح نادرة في المجتمعات التي تعتمد التفسيرات العلمية، وذلك يشير إلى دور العوامل الثقافية والدينية في تشكيل الإدراك الفردي لهذه الظواهر.

١- التأثير الثقافي: تُؤثر المعتقدات الثقافية والدينية على كيفية إدراكنا للأحداث وتفسيرها، ففي الثقافات التي تؤمن بـ"المس"، يُصبح من السهل تفسير أي تغير سلوكي أو صوتي على أنه علامة على تدخل خارجي.

٢- الضغط الاجتماعي: قد يمارس المجتمع ضغطاً على الفرد للتوافق مع التفسيرات المتعارف عليها، حتى وإن كانت غير مدعمة بأدلة علمية، مما قد

يحاول الشخص تفسير أعراضه بما يتوافق مع التوقعات المجتمعية لتجنب الرفض أو الوصم.

أما التجارب المسجلة لهذه الحالات غالباً ما تحدث ضمن سياقات دينية محددة، مما يعزز فرضية أن البيئة تلعب دوراً أساسياً في تشكيل هذه التجربة وليس وجود كيان خارجي فعلي.

السؤال الثالث: ما تفسير ادعاء مجموعة من الأشخاص مشاهدتهم لظواهر غريبة كتحرك كرسي في مبنى مهجور مفسرين ذلك بوجود الجن وتأثيرهم عليهم وإلحاق الضرر ببعضهم؟

الجواب: لا يخلو حال هؤلاء الأشخاص من مؤثرات نفسية واجتماعية ودينية وبيئية أو فيزيائية أو كيميائية، أما المؤثرات النفسية فتوقع حدوث أمور غريبة في الأماكن المهجورة بسبب مشاهدة الأفلام أو القصص المخيفة يجعلهم أكثر عرضة لتفسير أي صوت أو مشاهدة عادية بطريقة غير طبيعية، وأما المؤثرات الاجتماعية فتأثير الحكايات الشعبية نحو القصص المتداولة عن الأماكن المهجورة يعزز من احتمالية رؤية الأشخاص لظواهر غريبة، وأما المؤثرات الدينية فما للدين من مكانة عظيمة لديهم فإن سماعهم لنصوص تفيد بتحركات للجن في الأماكن المهجورة يجعلهم أكثر تصديقاً بها، وأما المؤثرات البيئية فالضوضاء البيئية كالرياح والحيوانات الصغيرة أو الاهتزاز في المبنى قد تصدر أصواتاً غريبة تفسر على أنها أنشطة للجن، وأما المؤثرات الفيزيائية فالمجالات الكهرومغناطيسية ممكن أن تسبب بعض الأماكن المهجورة اضطرابات في الحقول الكهرومغناطيسية مما قد يؤثر على شعور الشخص أو إدراكه، وأيضاً انعكاس الضوء أو الصدى قد يولدان أوهام بصرية أو صوتية تبدو غريبة، وأما المؤثرات الكيميائية فتناول بعض المواد نحو (LSD) يمكن

أن تؤدي إلى رؤى بصرية شديدة، أو (فطر السيلوسيبين) المسمى بالفطر السحري فإنه يؤدي إلى تغيرات في الإدراك والوعي، أو ثنائي ميثيل تريبتامين (DMT) أو (مسكالين) أو (آياهواسكا) أو غيرها، فإن تناول هذه المواد يؤدي إلى هلوسات بصرية وسمعية يفسرها الناس بالجن أو السحر أو غير ذلك على حسب الثقافات الشعبية.

وأما من الناحية الدينية فالقرآن الكريم هو أصدق مصدر يمكن الاعتماد عليه في الإيمان بوجود الجن وتأثيرهم، نجده يؤكد على حقيقة أن الجن خُلِقوا للعبادة كالبشر وليس لعمل مشاهد الرعب واللعب مع بني آدم، ولم نجد فيه أي إشارة إلى ذلك، بل نجده يحصر تأثير الجن في الوسوسة والتزيين وإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، قال الله تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ...**﴾ [الأعراف:٢٠]، وقال تعالى: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام:٤٣]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء...**﴾[المائدة:٩١]، وأكد القرآن أن كيد الشيطان ضعيف قال تعالى: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً**﴾[النساء:٧٦]، والكيد هو المكر والاحتيال والخديعة والتخفي، فكيف يصفه الله تعالى بالضعف ويزعم الكثير قوته في الكيد من خلال عمل مشاهد الرعب والإضرار بالناس خفية؟!

السؤال الرابع: قيل للتدليل على إصابة الإنسان بمس الشيطان والإضرار ما ورد في القرآن الكريم من قصة النبي أيوب عليه السلام قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾[ص:٤١]؟

الجواب: إن تفسير هذه الآية خلاف ما توهم موردها، فالشيطان هو رجل تسبب بالخلاف بين النبي أيوب عليه السلام وزوجه، فقد روي: إن أيوب صلوات الله عليه، كان صاحب قراء وطعام للناس، وكانت الأضياف تأوي إلى

منزله؛ لفضله وفعاله الجميل، فلما كان في وقت من ذلك غاب عن منزله صلوات الله عليه؛ ثم غدا راجعاً إلى أهله فلقيه رجل قد غدا من منزل أيوب، فسأله: من اين خالفه، وأين بات؟ فقال: بت في منزل أيوب، قال: فما كنت وما قرؤك؟ قال: بت عنده بلا عشاء، فاغتم أيوب صلى الله عليه، ومضى إلى أهله، فسألهم عن ذلك الضيف، ولامهم؛ حيث غفلوا عنه، فحلف لمرأته وهي رحمة بنت يوسف بن يعقوب صلوات الله عليهم ليجلدنها مائة ضربة؛ إذ قصرت في ضيفه، فلما حلف ندم على يمينه؛ إذ لم يلزمها ذلك الأدب الذي حلف عليه، فجعل يقول: قد حلفت بالله لأضربنها، هل يجوز لي أن أحنث، وقد حلفت بالله؟! ثم رجع إلى نفسه فيقول: ليس عليها لي ذنب وهذا أمر لا يلزمها، فما زال كذلك يدير فكره ويروض أمره، حتى أورثه ذلك غماً عظيماً داخل قلبه، فمن شدة الغم لزمه المرض، فمرض حتى نغل وجرى فيه الدود وضاعت أمواله وتأذى به أهل البلد(١).

فالشيطان المذكور بالمس هو رجل من شياطين الإنس، بدليل قوله تعالى لإبلس: ﴿**إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ [الحجر:٤٢]، وأيوب عليه السلام من خيار عباد الله تعالى الذين أثنى عليهم، فقال فيه خاصة: ﴿**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾[ص:٤٤]، ولو كان أيوب عليه السلام عنى الشيطان بالجني حيث قال: ﴿**أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾[ص:٤١]، للزمه أنه من الغاوين وأن لإبليس عليه سلطاناً، والقرآن لا يتناقض ولا يختلف، وأن لكل معنى من هذا الجنس تأويل يرده إلى الحق والعدل والحكمة والبراءة من التناقض والعيب والفساد(٢).

---

(١) مسائل المجبرة عن وسوسة إبليس ص٢٢٦-٢٢٧.

(٢) المرجع السابق ص٢٢٨.

السؤال الخامس: قيل لتأثير الجن على الإنسان وأنهم يسكنون الحمامات الدعاء الذي يقال عند دخول الحمام وهو: ((**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ**))؟

الجواب: لا علاقة للدعاء المذكور بالحمامات والجن وتأثيرهم، لأن الخبث والخبائث عندهم العرب تطلق على المكروه أو القبيح، ولذلك ترد على حسب السياق مثل قوله تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ**﴾[النور:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ**﴾[إبراهيم:٢٦]، وفي الحديث: ((**الخَمْرُ أُمُّ الخَبَائِثِ**))، وأيضاً الدعاء ورد عند الخلاء وليس الحمام والخلاء في اللغة هو الفضاء الواسع الذي لا شيء فيه، ولم يكن قديماً حمام كاليوم ولا علاقة للماء الحار كما يتوهم البعض بالجن وتأذيهم منه.

ويمكن تفسير الخبث والخبائث في دعاء دخول الحمام كرمز لجوانب عديدة كما يلي:

١- الخبث والخبائث كرمز للأذى المادي والصحي:

فالخبث: قد يُفسر كإشارة إلى الأذى المادي الذي قد يتواجد في أماكن قضاء الحاجة، مثل الجراثيم والميكروبات والبكتيريا التي تنتشر في هذه الأماكن.

والخبائث: قد تشير إلى الأوساخ والنجاسات التي تسبب الأمراض أو التلوث.

والحمامات والخلاء هي أماكن غير نظيفة بطبيعتها، وقد تكون مصدراً للعدوى والأمراض، وبالتالي الدعاء هنا طلب للحماية من هذه الأضرار الواقعية.

وممكن أن يشيران إلى حالات جسدية مثل الإمساك والإسهال، بناءً على سياق الدعاء ومكان استخدامه (الحمام، حيث يتعامل الإنسان مع وظائف

الإخراج)، هذا التفسير لا يبعد من حيث التسمية فقد جاء في الحديث ما يفيد ذلك وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((**لا يُصَلِّي أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ**))، وأما كراهتهما فما يسببانه للإنسان من أضرار صحية:

فالخبث (الإمساك): يُعتبر نوعاً من "الخبث"؛ لأنه يعوق عملية الإخراج الطبيعية، مما يسبب أذىً داخلياً وضرراً للجسم، ويمكن تفسير الدعاء هنا كطلب من الله الحماية من هذا النوع من الضرر الذي يُسبب الألم أو الأذى الصحي.

والخبائث (الإسهال): يُعتبر نوعاً من "الخبائث"؛ لأنه عملية إخراج غير طبيعية ومفرطة، ويمكن أن ترتبط بأمراض أو عدوى تضر بالجسم، والدعاء هنا طلب للحماية من هذه الحالة غير الطبيعية التي تُرهق الجسم وتسبب شعورًا بالضعف.

والحمام هو المكان الذي يواجه فيه الإنسان مشكلات مرتبطة بالجهاز الهضمي والإخراج (مثل الإمساك أو الإسهال)، وكلاهما يُعتبر أذىً جسدياً يمكن أن يؤثر على صحة الإنسان ونشاطه اليومي، وطلب الحماية من "الخبث والخبائث" يمكن أن يُفهم على أنه دعاء للحماية من هذه الحالات الجسدية التي قد تصيب الإنسان خلال عملية الإخراج، ولأن الدعاء في الإسلام غالباً ما يعكس حاجات الإنسان اليومية ومخاوفه الحياتية، بما في ذلك الجوانب الصحية.

٢- الخبث والخبائث كرمز للشر الأخلاقي والمعنوي:

فالخبث: قد يُشير إلى الأفكار أو الوساوس السلبية أو الشريرة التي قد تخطر للإنسان في هذه الأماكن، حيث يكون في حالة خلوة وضعف.

والخبائث: قد تُفسر كإشارة إلى التصرفات السيئة أو الأعمال الخبيثة التي قد تنشأ من غفلة الإنسان عن ذكر الله في مثل هذه الأماكن.

فالدعاء هنا يكون طلباً للحماية من التأثيرات النفسية أو الأخلاقية السلبية التي قد تحدث نتيجة وجوده في مكان قد يغفل فيه الإنسان عن التذكر والعبادة.

٣- الخبث والخبائث كرمز للأذى النفسي أو الطاقي:

فالخبث: قد يُشير إلى الطاقات السلبية أو المشاعر السلبية التي قد تتسلل للإنسان في الأماكن المغلقة أو المظلمة.

والخبائث يمكن أن تُفسر على أنها القوى أو المؤثرات الضارة (سواء كانت نفسية أو بيئية) التي تُضعف الإنسان أو تؤثر على راحته.

ومن منظور واقعي وعقلي، الحمام مكان مغلق ومنعزل، قد يثير شعوراً بالضيق أو السلبية، والدعاء بمثابة تحصين ضد هذه المشاعر.

٤- الخبث والخبائث كإشارة إلى البيئة المحيطة:

فالخبث: قد يُفسر كإشارة إلى السموم أو المواد الضارة التي قد تتواجد في هذه الأماكن، مثل الغازات أو الأبخرة الناتجة عن المخلفات.

والخبائث: قد تُشير إلى الحشرات أو الكائنات الضارة (مثل الصراصير أو الفئران) التي تنتشر في أماكن قضاء الحاجة.

والدعاء هنا يكون طلباً للحماية من أي ضرر بيئي أو مادي قد يواجه الإنسان أثناء وجوده في هذه الأماكن.

٥- الخبث والخبائث كإشارة إلى ضعف الإنسان:

فالخبث: قد يُشير إلى ضعف الإنسان الجسدي والمعنوي أثناء وجوده في مكان قضاء الحاجة، حيث يكون في حالة انكشاف وحاجة.

والخبائث: قد تُفسر على أنها الأخطار التي قد تستغل هذا الضعف، سواء كانت أخطارًا مادية أو معنوية.

والدعاء طلب للحماية من أي خطر قد يتعرض له الإنسان في هذا الوضع.

وهذه التفاسير المناسبة والمعقولة عند دخول الحمام، لأن القول بخلاف ذلك نحو إضرار الجن لا دليل عليه من القرآن أولاً ولا يقبله العقل ثانياً ولا يؤيده الواقع ثالثاً.

السؤال السادس: قيل لإثبات قدرة الجن وتأثيرهم اليوم على الإنسان قوله تعالى عن قولهم: ﴿**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً**﴾[الجن:٩]؟

الجواب: ليس في ذلك دلالة على زعمهم، لأن الآية تحكي إمكانية سابقة للجن وهي التموضع من السماء لاستماع الأخبار من الملائكة لا سيما أخبار الغيب الموحى إليهم من الله تعالى، لكن هذه الإمكانية تعطلت عند مبعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنص الآية، ولذلك أبدوا جهلهم بحقيقة الرسالة في قولهم: ﴿**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً**﴾ [الجن:١٠].

كيف كان الجن يسترقون السمع؟

يُحتمل أنّ الله تعالى أعطاهم القدرة على الوصول إلى أماكن محددة تُؤتى فيها الملائكة، فتتكلّم، فيستمع الجنّ ويُلقون ما سمعوه إلى غيرهم.

لماذا مُنع الجنّ من استراق السمع؟

لعدة أسباب:

- إيهام ضعفة الجنّ بعلمهم الغيب: فعندما يجدون الأمر كما قيل لهم، ينقادون إليهم.

- جعل استراق السمع طعنًا في النبوات والمعجزات.

- إلقاء ما سُمِع إلى الإنس بالوسوسة، ممّا يُثير الشبهات.

- تكاثر نزول الملائكة وصعودهم أيام البعثة: وعند التقائهم ببعضهم، يذكرون أمورًا غائبة، فيستمعها الشياطين، ويسابقون النبيّ صلى الله عليه وآله سلم في الإخبار بها، ممّا يُفسد على ضعاف العقول أمر النبوة.

- كون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مبعوثاً إليهم: فلا يجوز لهم سماع الرسالة إلا منه.

- كون منعهم معجزة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولطفًا لهم: حيث حثّهم على التدبر والتفحص.

قد يُقال: إنّ الشهب كانت موجودة قبل المبعث كما هي بعده، فكيف تُعتبر معجزة؟

نقول: كثرت في أيامه صلى الله عليه وآله وسلم حتى أصبحت خارقة للعادة، كما أنّ المطر ليس بمعجزٍ في جريانه، لكنّه يصبح كذلك إن زاد عن المعتاد ودخل في حدّ الإعجاز كالطوفان، وهذا ما حدث في أيام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فكثرة الشهب ومنع الجنّ كانا معجزةً للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم(١).

السؤال السابع: قيل لإثبات حقيقة السحر ظهر ساحر سوداني تائب اسمه حامد آدم على قناة روتانا في برنامج الليوان، وحكى تجربته منذ البداية وتعامله مع الجن والخوارق التي كان يعملها؟

---

(١) التهذيب في التفسير ج١٠ص٧١١٥-٧١١٦.

الجواب: تم متابعة البرنامج المذكور مع الشخص السوداني بدقة وتحليل عميق، والتفسير العلمي لحالته، أنه مر نفسياً في خمس مراحل:

المرحلة الأولى: الطموح – الحاجة إلى القبول والتميز:

وفقاً لنظرية الحاجات النفسية (Maslow, Erikson): حامد في طفولته واجه إحساساً بالنقص مقارنة بأقرانه، فسعى لتحقيق "قيمة" ذاتية في مجتمع يُقدّس حفظ القرآن والشيوخ، وفقاً لـ"ماسلو"، هذه حاجة تنتمي لمستوى الاحترام والانتماء، ووفقاً لـ"إريك إريكسون"، هي صراع بين الهوية مقابل الغموض في مرحلة المراهقة.

المرحلة الثانية: التهيئة الإيحائية – زرع الفكرة تدريجياً:

وفقاً لنظرية الإيحاء والتلقين (Suggestibility – Milton Erickson): الشيوخ استخدموا خطاباً ناعماً ومغرياً: "ستصبح ولياً"، "لديك سر من أسرار القرآن"، هذه الرسائل هي "إيحاءات"، تعمل على مستوى اللاوعي، خاصة إذا جاءت من شخص يملك "سلطة دينية"، فتم بناء نموذج داخلي (Schema) جديد في عقل حامد: "أنا مختلف ومصطفى".

المرحلة الثالثة: التغيير الحسي – العزلة والجوع والحرمان:

وفقاً لنظرية علم النفس العصبي + التجارب الحدّية (Extreme States): دخول الخلوة والجوع الطويل يؤدي إلى نقص الجلوكوز وارتفاع في هرمونات التوتر (الكورتيزول)، والنوم القليل والعزلة يفتحان باباً لـ"الحالات المعدّلة من الوعي" (Altered States of Consciousness)، فيبدأ الدماغ بإنتاج صور ذهنية مشوشة، ويمكن أن تظهر هلوسات سمعية وبصرية.

المرحلة الرابعة: الإدراك غير العادي – ظهور الكائنات والكرامات:

وفقاً لنظرية كارل يونغ – "اللاشعور الجمعي" و"الظلال" (Collective Unconscious & Shadow): الكائنات التي "ظهرت" له (سهسهوبي، الحيوانات، الأرواح) ليست حقيقية، بل إسقاطات من لاوعيه، يرى يونغ أن كل إنسان يحمل بداخله "أنيما" و"ظلالًا" تخرج في التجارب الغامضة، وهذه الكائنات تمثل مخاوفه وطموحاته ومعتقداته البدائية، لكنها تظهر له كأنها كائنات خارجية.

المرحلة الخامسة: التقمص والدمج – التصديق الكامل:

وفقاً لنظرية اندماج الهوية + التفسير الذاتي (Cognitive Dissonance – Leon Festinger): بعدما عاش التجربة بكل جوارحه، بدأ يبني هويته كاملة حولها: أنا ولي – أنا مطاع – لدي خدام – أملك كرامات، فإذا شكّك أحد في هذا، يشعر بـ تنافر معرفي (cognitive dissonance)، فيدافع أكثر عن تجربته، أي دليل مضاد يتم تفسيره كـ"ابتلاء" أو "حسد" أو "إنكار للكرامة".

وعندما سُئل الساحر بأن لا حقيقة للسحر، استدل فقط بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سُحر، وهذا القول يعارض القرآن الكريم ويطعن في النبوة، وهو ذات القول الذي استعمله المشركون للطعن في النبي كما قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً**﴾[الفرقان: ٨].

المبحث الرابع
العين وحقيقتها

العين، أو الحسد، من المفاهيم التي شغلت الإنسان عبر العصور، حيث اعتُقد أنها تمتلك قوة خفية تؤثر على الأفراد والأشياء، وقد تناولتها الأديان والثقافات المختلفة بوصفها ظاهرة واقعية، وربطتها بنظريات نفسية وروحية، امتد حضورها من النصوص الدينية إلى الموروث الشعبي، مؤثرة في السلوكيات والممارسات الاجتماعية، في هذا المبحث نستعرض حقيقتها، تاريخها في الحضارات المختلفة، وإجابة العديد من الأسئلة حولها.

المطلب الأول: مفهوم وتاريخ العين:

الفرع الأول مفهوم العين:

العين في اللغة: مشتقة من عان، ولها معاني تزيد على المائة، منها المطر، وحاسة البصر، والجاسوس، وجريان الماء، والحاضر من كل شيء، وحرف الهجاء العربي، وخيار الشيء، والدينار، والإصابة بالعين، إلخ[١].

العين في الاصطلاح: لم أقف على معنى يفيد الموضوع في الاصطلاح وإنما ممكن يعرفها البعض بنوع من الحسد، والحسد في الاصطلاح قيل: «هو تمنّي زوال نعمة المحسود إلى الحاسد»[٢]، وقيل: «هو التألّم بما يراه الإنسان لغيره من الخير وما يجده فيه من الفضائل، والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هو له»[٣].

---

(١) تاج العروس ج٣٥ص٤٤٠.

(٢) التعريفات ص٨٧.

(٣) تهذيب الأخلاق ص٣٤.

والملاحظ من هذه التعاريف لا يدل معناها على ما قيل من حقيقة العين، ولعل أقرب تعريف هو ما نقل عن (بلوتارخ) الفيلسوف اليوناني المتوفى نحو سنة ١٢٥م: «القدرة على إطلاق أشعة غير مرئية ضارة»، لأن الحسد ليس إلا تمني أو السعي عملياً لإضرار المحسود، والعين عند من يرى لها حقيقة لا يراه كذلك، ولأجل ذلك حاول البعض التفرقة بينهما نحو ابن القيم إذ قال: «والعائن والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته والحاسد يحصل له ذلك عند غيب المحسود وحضوره أيضا ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه وربما أصابت عينه نفسه فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين»[١].

وقد حاول أحدهم وهو المناوي – المتوفى سنة ٩١١هـ – تعريفها قائلاً: «هي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعيون تصيبه تارة وتخطئه أخرى فإن صادفته مكشوفا لا وقاية عليه أثرت فيه ولا بد وإن صادفته حذرا شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام خابت فهو بمنزلة الرمي الحسي»[٢]، وهو قريب من تعريف الطبائعيين نحو قولهم: «شيء ينفصل من العين ويتصل بالمعاين»[٣].

وإجمالاً من يقول بتأثير العين فهو يرى تأثيرها عند النظر بحاسة العين، سواء كان النظر إلى كائن حي أو جماد، فمصدر الضرر عندهم هو النظر بالعين إلى المنظور إليه.

---

(١) بدائع الفوائد ج٢ص٢٣١.

(٢) الشمائل الشريفة ص١٠٦.

(٣) أحكام القرآن ج٤ص٤٣٤.

الفرع الثاني: تاريخ العين:

الاعتقاد بالعين الحسودة منتشر منذ آلاف السنين في منطقة البحر الأبيض المتوسط والشرقين، وتشير الأدلة الأثرية والأدبية إلى وجود هذا الاعتقاد لدى العديد من المؤلفين مثل (هسيود) و(أفلاطون) و(بلوتارخوس)، وفي كتاب "الحسد والإغريق" (١٩٧٨)، أشار (بيتر والكوت) إلى أخبار تتحدث عن العين الحسودة، وقد زعم (بلوتارخوس) أن عين البشر لديها القدرة على إطلاق أشعة غير مرئية، كانت في بعض الحالات، من القوة بحيث أهلكت الأطفال أو الحيوانات الصغيرة، وهو اعتقاد شائع في الفترة اليونانية-الرومانية(١).

وعند الآشوريين، كان الناس يرتدون خرزاً أزرق للحماية من العين، وفي الديانة اليهودية، ذكرت العين الحسودة في "أخلاقيات آبائنا"، حيث اعتبرها الحاخام (إليعازر) أسوأ من قلبٍ فاسد، وفي الهندوسية، تعرف العين الحسودة بـ "نزار بوري" أو "درشتي"، وفي إثيوبيا، تعتبر "بودا" ذات تأثير قوي وتُمارس بين مجموعات مختلفة.

وقد نتج عن ذلك اختراع جملة من التعاويذ والعلاجات الوقائية، هي عبارة عن أدوات أو رموز تستخدم لدرء العين الحسودة والحماية منها في مختلف الثقافات:

- الخرز الأزرق: يستخدم في الشرق الأوسط وتركيا، ويعرف بـ "نزار".

- يد الخمسة: تعويذة على شكل يد لها خمسة أصابع، تعرف بـ "يد مريم" في الثقافة اليهودية.

- التمائم: تُستخدم في إثيوبيا، مثل "الكتاب" الذي يحوي دعوات للحماية.

---

(١) الحسد والإغريق ص١١٣.

- رمز العين: يستخدم كتعويذة شعبية في العديد من الثقافات، خاصة حول البحر الأبيض المتوسط.

المطلب الثاني: حقيقة العين:

الفرع الأول: حقيقة العين في الفكر الإسلامي:

الخلاف في حقيقة العين كالخلاف في حقيقة السحر، فمن أثبت حقيقة للسحر أثبته للعين، ومن لم يثبت حقيقة للسحر لم يثبت حقيقة للعين، فالعترة والمعتزلة وغيرهم لا يثبتون حقيقة مؤثرة للعين، وأغلب أهل السنة لا سيما العوام منهم ومن غيرهم يثبتون لها حقيقة مؤثرة، ويشنعون على من يخالفهم، قال القرطبي – المتوفى سنة ٦٧١هـ -: «العين حق... وهذا قول علماء الأمة، ومذهب أهل السنة، وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محججون بالسنة، وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود، فكم من رجل أدخلته العين القبرَ، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ كما قال: ﴿**وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢]»(١).

وقال الشوكاني – المتوفى سنة ١٢٥٠هـ -: «وقد أنكر بعض المعتزلة كأبي هاشم، والبلخي أن للعين تأثيرًا... وليس هذا بمستنكَر من هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم ودَيْدَنهم، وأي مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك؟ وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأُصيب بها جماعة في عصر النبوة... وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة، وإجماع مَن يُعْتَدُّ به من هذه الأمة سلفًا وخلفًا،

(١) تفسير القرطبي ج٩ص٢٢٦.

وبما هو مشاهَد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب»(١).

فالمثبتون حقيقة مؤثرة للعين لا يقصرون تأثيرها لمجرد الرؤية بل يرون أن التأثير قد يلحق لمجرد الوصف، قال ابن القيم: «ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيُوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه، وإن لم يَرَهُ، وكثير من العائنين يؤثِّر في المُعِين بالوصف من غير رؤية»(٢).

ويرون أيضاً بأن الرجل قد يكون مجبوراً على إصابة غيره بالعين، قال القرطبي: «قد يكون الرجل الصالح عائنًا»(٣)، وقال ابن القيم: «الرجل... قد يعين بغير إرادته، بل بطبعه»(٤)، وقال ابن حجر: «العين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد ولو من الرجل المحب ومن الرجل الصالح»(٥).

ويحتج المثبتون لتأثير العين بما يلي:

- من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾[القلم:٥١]، قالوا: يصيبونك بعيونهم(٦).

---

(١) فتح القدير ج٣ص٤٨-٤٩.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ج٤ص١٥٣-١٥٤.

(٣) تفسير القرطبي ج٩ص٢٢٧.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد ج٤ص١٥٤.

(٥) فتح الباري ج١٠ص٢٠٥.

(٦) تفسير البغوي ج٥ص١٤٢.

ويرد عليهم: بأن المراد النظر المكروه منهم عند قراءة القرآن عليهم، يبين ذلك أن العين لو كانت حقاً كما يقولون لكانت تؤثر فيما يعجب به ويعظم لا في خلافه![١].

وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ**﴾[يوسف:٦٧]، قالوا: خشي عليهم العين[٢].

ويرد عليهم: أن يعقوب عليه السلام أمرهم بالدخول متفرقين خشية أن يتم القبض عليهم دفعة واحدة، فرأي أن التفرقة أسلم، وقيل: أراد بافتراقهم أن يصل بنيامين إلى يوسف[٣]، يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا**﴾[يوسف:٦٨].

ومن الأخبار: ما رووا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((**العَينُ حقٌّ**))[٤]، و((**ولو كان شيءٌ سابقَ القدر، سبقتْهُ العين**))[٥]، و((**العين تُدْخِل الرجلَ القبرَ، وتُدْخِل الجمل القِدْرَ**))[٦]، و((**أكثر هلاك أمتي في العين**))[٧] وروايات تفيد بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمح بالرقى وكان يرقي الحسن والحسين عليهما السلام.

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص٤٣١.
(٢) تفسير الطبري ج١٣ص٢٣٨.
(٣) التهذيب في التفسير ج٥ص٣٦٧٧.
(٤) صحيح البخاري ج٧ص١٣٢.
(٥) صحيح مسلم ج٤ص١٧١٩.
(٦) مسند الشهاب ج٢ص١٤٠.
(٧) تفسير ابن كثير ج٨ص٢٢٤.

ويرد عليهم: بأن هذه أخبار آحاد إن صحت فيجب أن تأول بما يوافق العقل والقرآن، وإن لم تصح فلا قيمة لها في مقابل العقل والقرآن، أما الخبر الأول وهو : ((**العين حق**)) فالمراد به أن ما رأته العين هو حق في مقام الشهادة؛ لأنها تعتمد على حاسة مباشرة لا تتطلب تفسيراً أو تخميناً كما هو الحال مع الحواس الأخرى، ويؤكد ذلك ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «ما رَأَتْهُ عَيناكَ فهو الحقُّ، وما سَمِعَتْهُ أُذُناكَ فأَكْثَرُهُ باطلٌ»(١)، و«الباطلُ أنْ تَقولَ: سَمِعتُ، والحقُّ أنْ تَقولَ: رَأَيْتُ»(٢).

وأما الخبر الثاني وهو ((**ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين**)) فيه دلالة على مسابقة العين لقدر الله، ولا تكون المسابقة إلا باستقلال قوة المسابق، وفي ذلك دلال على بطلان صحة هذا الخبر؛ قال تعالى: ﴿**وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ**﴾[يونس:١٠٧].

وأما الخبر الثالث وهو ((**العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر**)) الخبر يفيد بظاهره استقلال العين بالقتل دون تدخل من الله تعالى، وهذا خلاف ما يعتقده من يزعم بتأثير العين، وأيضاً لفظة الخبر يستحيل أن يكون صادر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما الخبر الرابع وهو ((**أكثر هلاك أمتي في العين**)) فالواقع يكذب هذا الخبر؛ فهلاك الأمة متعدد الأسباب، نسبة كبيرة منه في الحروب وأيضاً الأمراض.

---

(١) الخصال ص٢٣٦.

(٢) نهج البلاغة ج٣ص٢٤.

وأما الرقية فلا دلالة فيها على تأثير العين وإنما المراد التعوذ من صاحب حاسة العين وما يمكن أن يقدم عليه نتيجة خبثه وحسده، فالعين تعبير عن صاحبها نحو قوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾[يوسف:٨٢] والمراد أهل القرية.

ومن ناحية أخرى فالرقية كانت لدى أهل الجاهلية بل ومن قبلهم من الأمم مع اختلاف دياناتهم، ووجودها ليس بدليل على ثبوت تأثير العين، فلكل رقية مغايرة يزعم نفعها، بل قد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((**إن الرقى، والتمائم، والتولة شرك**))[١] وهذا صحيح لأن اعتقاد تأثير كلمات أو جمل دون الله لا شك في أنه شرك، وكذلك اعتقاد تأثير شخص تصدر عنه تلك الكلمات أو الجمل.

ويحتج النافون لتأثير العين بما يلي:

من العقل: لا يصح تأثير العين عقلاً لأنه «ليس يخلو نظرهم من أن يكون انتقل منه جسم إلى الشيء المعجب فلابسه، ووصل إليه ولامسه، وإما أن يكون لم يصل شيء منه إليه، ولم يقع مما توهموا عليه.

فإن قالوا: إنه خرج من أنفسهم وأعيانهم جسم أمرضه، ووصل إليه وعارضه، فهذا الجسم لا يخلو من أن يكون لطيفاً، أو يكون عند خروجه كثيفاً، فإن زعموا أنه خرج من أعيانهم وأنفسهم جسم كثيف أوجعه، وغلب الشيء المعجب وصرعه، أو أيبس الشجر وقطعه، فهذا محال؛ لأن العين والنسمة ضعيفان، وهما مع ضعفهما لطيفان، وما كان من الأشياء كلها ضعيفاً، وكان مع ضعفه لطيفا، فيستحيل أن يخرج منه جسم كثيف.

---

(١) سنن أبي داود ج٤ ص٩.

وإن قالوا: بل خرج منه جسم لطيف، فليس يخرج من العين والنسمة إلا ما هو ألطف، وأقل منها وأضعف، وما كان ألطف من اللطيف، وأقل وأضعف من القليل الضعيف، لم يذهب في الأهوية إلا ضلالا، وكان كل ما ينسب إليه محالا، وقد علم كل عاقل أنصف عقله، ولم يتبع جنونه وجهله، أن ذلك لو صح لمدعيه، لما ترك على وجه الأرض أحدا يعاديه، وقد رأينا بالمشاهدة أعداءه أحسن حالا، وأكثر منه ولدا ومالا، فلو كان صادقا فيما يدعي من المحال، وينتحل عند الرعاع والجهال، لما ترك أعداءه يوما واحدا، ولما ترك لهم مالا وولدا، ولا أبقى في إلحاح النظر جهدا»(١).

من القرآن: لا دلالة في القرآن على تأثير للعين، بل القول بوجود تأثير لنظر العين دعا الكثير إلى إخفاء محاسنهم ومحاسن أطفال، بل وصورهم على مواقع التواصل الاجتماعي؛ خوفاً من تأثير العين، متجاهلين قوله تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة:٥١]، ونافين لمبدأ الإرادة الحرة لدى الإنسان بقولهم إن تأثير العين يقع دون إرادة العائن، وفي ذلك رد لكثير من الآيات التي ينهى الله تعالى عن إرادة الأفعال نحو قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [المائدة:٨٧]، و﴿**وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾[الإسراء:٣٣]، و﴿**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ**﴾[الإسراء:٣١].

من السنة النبوية: لا دلالة صحيحة من السنة النبوية على تأثير العين، وما روي من أخبار يزعم أنها تفيد تأثير العين فقد سبق ذكرها وبيان حقيقتها، وأيضاً روايات النهي عن الظلم والاعتداء والقتل دليل على بطلان تأثير العين نحو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((**المسلم من سلم المسلمون من لسانه**

(١) مجموع كتب ورسائل الإمام الحسين العياني ص٢١٧.

ويده))[١] ولم يقل عينه! وفيه دلالة على حصر تأثير الإضرار باللسان واليد، ونحو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((**من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه**))[٢] ولم يقل نظر إليه نظرة عين! و((**لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه**)) [٣] والبوائق هي الظلم والغشم، وكثيراً ما يفسر بين العوام حدوث تأثير العين بين الجيران، والحديث حصر الإضرار بينهم بالبوائق.

من الواقع: لا تأثير للعين، وإنما ينسب من يؤمن بتأثير كل ضرر يمكن الكشف عن سببه إلى العين، وهناك أقوام لا يؤمنون بتأثيرها عبر التاريخ والجغرافيا لم يذكر عنهم إصابتهم بها.

الفرع الثاني: حقيقة العين عند الطبائعية:

قال من أثبت حقيقة للعين مؤثرة من حكماء الطبائعية معللاً تأثيرها: هذا عائد إلى نفس العائن، وذلك لأن الهيولى مطيعة للأنفس، متأثرة بها، ألا ترى أن نفوس الافلاك تؤثر فيها بتعاقب الصور عليها! والنفوس البشرية من جوهر نفوس الافلاك، وشديدة الشبه بها، إلا أن نسبتها إليها نسبه السراج إلى الشمس، فليست عامة التأثير، بل تأثيرها في أغلب الأمر في بدنها خاصة، ولهذا يحمى مزاج الإنسان عند الغضب، يستعد للجماع عند تصور النفس صورة المعشوق، فإذن قد صار تصور النفس مؤثراً فيما هو خارج عنها، لأنها ليست حالة في البدن، فلا يستبعد وجود نفس لها جوهر مخصوص مخالف لغيره من جواهر النفوس تؤثر في غير بدنها، ولهذا يقال أن قوماً من الهند يقتلون بالوهم،

(١) صحيح البخاري ج٨ص١٠٨.

(٢) صحيح مسلم ج٤ص٢٠٢٠.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ج٦ص١٨٩.

والإصابة بالعين من هذا الباب، وهو أن تستحسن النفس صورة مخصوصة وتتعجب منها، وتكون تلك النفس خبيثة جداً، فينفعل جسم تلك الصورة مطيعا لتلك النفس كما ينفعل البدن للسم(١).

وهذا التفسير وإن كان استحسنه ابن أبي الحديد فلا يقبله العقل ولا يقره العلم الحديث، فالمؤثرات محصورة، ووظيفة العين معلومة قديماً وحديثاً، لا يتصور تأثير النفس في غيرها عن بعد عند استحسانها صورة، ولا يمكن تفسير ذلك علمياً، وإن ادعى البعض وافترض فلا يمكن التحقق من صحة ذلك والوصول إلى قانون علمي مفسر عام ومجرد.

الفرع الثالث: حقيقية العين في علم النفس:

يسعى علم النفس إلى فهم الظواهر الإنسانية من خلال السلوك الإنساني، ويتعامل مع هذه الظواهر من منظور علمي بعيداً عن الأبعاد الثقافية الدينية منها والخرافية، وبالتالي يرى بأن هناك جملة من الأسباب وراء الإيمان بتأثير ما يسمى بـ(العين)، ويمكن تقسيم هذه الأسباب إلى ذاتية وثقافية اجتماعية، وهي كما يلي:

أولاً: الأسباب الذاتية:

المقصود بالأسباب الذاتية هي العائدة إلى ذات الإنسان دون غيره وهي:

١- الإيهام الذاتي: وهو اقناع الشخص ذاته بأنه محل للحسد، وبالتالي معرض للإصابة بالعين، وبناء على ذلك يفسر كل أذى يحدث له بأنه عين، بل يفسر كل نظرة إليه بأنها حسد أو موصلة إلى العين.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١٩ ص٣٧٣.

٢- التفسير المفترض: وهو قيام الشخص بتفسير كل ضرر يحدث صغير أو كبير بأنه عين حاسدة كتفسير أولي، مع صعوبة تقبله بأي تفسير علمي لذلك الضرر بغير العين.

ثانياً: الأسباب الثقافية الاجتماعية:

المقصود بالأسباب الثقافية الاجتماعية وهي العائدة إلى المجتمع المنعكسة على الفرد وهي:

١- التنشئة الاجتماعية: وهي عملية تشكيل الإنسان منذ الولادة وتبدأ في المنزل من قبل الأهل، ثم البيئة التي يعيش فيها، ومن خلالهما يتم ترسيخ مفهوم العين وتأثيرها، حتى يجد الإنسان نفس بعد كبر سنه مضطراً إلى تصديق أو تفسير كل أذى يصيبه أو غيره بالعين، مع صعوبة تقبل أي تفسير علمي آخر له.

٢- الموروثات الثقافية والدينية: وهي مجموعة المعتقدات التي يتلقاها الإنسان في مختلف مراحله العمرية، كعادات ثقافية موروثة أو عقائد دينية تستند إلى نصوص توصف بالقداسة، فما ورد فيها يصعب عليه الخروج عنها لاعتبار مكانتها الشعبية والدينية لديه كالاعتقاد بوجود العين ومدى تأثيرها.

المطلب الثالث: سؤال وجواب عن العين:

توجد مجموعة من التساؤلات التي يطرحها عامة الناس، وخاصة البسطاء فكرياً، والتي تؤثر في مدى تقبلهم لنفي حقيقة تأثير العين، وسنعرض هذه التساؤلات هنا مع توضيح حقيقتها من منظور علمي كما يلي:

السؤال الأول: قيل للتأكيد على وجود العين الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((**الْعَيْنُ حَقٌّ**))؟

الجواب: الحديث لا يعني إثبات تأثير العين كما يظن البعض، بل يمكن تفسيره – إضافة إلى ما سبق – وفق سياقات مختلفة تتعلق بالتأثير النفسي والاجتماعي والإدراكي، كما يلي:

– **العين كمرآة للنفس وتأثيرها**: العين ليست مجرد عضو بصري، بل هي نافذة على الروح، فما نراه ونركز عليه يؤثر بشكل مباشر على حالتنا النفسية، والطمع في شيء ما، أو الخوف من فقدانه، يولد ضغطاً نفسياً شديداً قد يؤدي إلى القلق والتوتر وحتى أعراض جسدية، لذا فالعين هنا رمز لقوة الإدراك البشري وتأثيره العميق على واقعنا الداخلي.

– **العين كرمز للتفاعل الاجتماعي**: في المجتمعات التي تنتشر فيها ثقافة الحسد، يصبح الفرد أكثر عرضة لتفسير أي إخفاق على أنه نتيجة "عين" أصابته، مما يزيد من قلقه ويثبط عزيمته، فنظرات الآخرين، سواء كانت حقيقية أو متوهمة، قد تؤثر على ثقة الإنسان بنفسه وأدائه، لذا فـ"العين" هنا تعبير مجازي عن الضغوط الاجتماعية والمقارنات التي تؤثر فينا.

– **العين كتحذير من الانبهار الزائف**: الحديث يحمل في طياته تحذيراً من الانبهار بالمظاهر الخادعة، فما تراه العين ليس دائماً الحقيقة، فقد يخدعنا بريق الدنيا وزخرفها، ويغفلنا عن الجوهر الحقيقي للأمور، وهذا المفهوم يتماشى مع التحذير القرآني من الانخداع بزينة الحياة الدنيا، ويدعونا إلى رؤية أعمق وأكثر وعياً.

– **العين كتعبير عن المشاعر السلبية**: المشاعر السلبية، كالحسد والغيرة، تحمل في طياتها طاقة مدمرة تؤثر سلباً على صاحبها وعلى من تُوجه إليه، فالنظرات السلبية تخلق جواً من التوتر والإحباط، والاعتقاد بأن شخصاً ما يحسدنا قد

يقوض ثقتنا بأنفسنا ويضعف عزيمتنا، لذا فـ"العين" هنا تعبير عن قوة المشاعر السلبية وتأثيرها الضار.

- **العين كدعوة إلى التواضع**: قد يكون الحديث دعوة غير مباشرة إلى التواضع وعدم التباهي بالنعم أمام الآخرين؛ لأن ذلك قد يثير الغيرة والمنافسة غير الصحية، والإسلام يدعو إلى التوازن في إظهار النعم، وعدم استثارة مشاعر الحسد لدى الآخرين، هذا المفهوم يتماشى مع قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً**﴾[الإسراء:٢٩].

- **العين كتأثير للمعتقدات والتوقعات**: الاعتقاد الراسخ بأن "العين" قد أصابتنا يمكن أن يخلق حالة نفسية تؤثر سلباً على صحتنا الجسدية والعقلية، فالتوقعات السلبية قد تتحول إلى واقع بسبب تأثيرها النفسي، وهو ما يعرف في علم النفس بـ "النبوءات الذاتية التحقق"، لذا فـ"العين" هنا تحذير من المبالغة في الاعتقاد بتأثير الآخرين على حياتنا بشكل سلبي، وتركيز طاقتنا على التوكل على الله والعمل الجاد.

هذه التفاسير تتماشى مع الواقع والعقل، لأنها تقدم فهماً عقلانياً ومنطقياً للحديث، بعيداً عن التصورات الغيبية غير المثبتة.

السؤال الثاني: قيل للتأكيد على صحة الإصابة بالعين أن أحدهم رأى طفل صغيراً فأعجبه فأصيب الطفل بطفح جلدي ثم مات الطفل من ذلك المرض؟

الجواب: لا علاقة لنظر الشخص بإصابة الطفل بذلك المرض، وإنما يفسر الطفح الجلدي في ذلك الطفل وحدوث الوفاة وتزامن الرؤية بعوامل نفسية وبيولوجية، فقد يكون الطفح الجلدي ناتجاً عن عدوى فيروسية أو بكتيرية مثل الحصبة، الجدري، أو التهاب السحايا، وهي أمراض قد تؤدي إلى الوفاة إذا لم تُعالج، كما أن بعض الأطفال يعانون من حساسية مفرطة أو اضطرابات في

جهاز المناعة، مما يجعلهم أكثر عرضة لتفاقم الأعراض بسرعة، ومن جهة أخرى، هناك فيروسات خطيرة مثل المكورات السحائية أو الإنتان الدموي، والتي قد تبدأ بأعراض بسيطة مثل الطفح الجلدي، لكنها تتفاقم خلال ساعات وقد تؤدي إلى الوفاة دون علاج فوري، أما الاعتقاد بأن النظرة هي سبب المرض فهو تفسير خاطئ ناتج عن ربط غير مبرر بين حدثين منفصلين؛ إذ من المرجح أن الطفل كان يعاني من مرض غير مشخص، و تزامن ظهور الأعراض مع نظرة الشخص عن طريق الصدفة فقط.

السؤال الثالث: قال أحدهم مؤكداً لحدوث العين بأنه كان عند طبيب العظام لغرض إزالة (الجبس)، وقام الدكتور أمامه باستعراض منشار قطع الجبس وكيف أنه لا يؤثر في الجلد وقام باستخدامه في يده مرات عديدة، ثم تعطل المنشار أثناء العرض، فتم ربط عين الإعجاب بتعطل المنشار؟

الجواب: أي جهاز ميكانيكي أو كهربائي يمكن أن يتوقف لأسباب فنية، وهذا لا يعني وجود تأثير غامض أو خارق للطبيعة كالعين، فمن المحتمل أن المنشار توقف بسبب مستشعر الأمان، أو ارتفاع الحرارة، والأقرب أنه لكثرة استخدام الدكتور المنشار على الجلد أدى إلى تعطيل آلية الحماية أو تفعيل مستشعر التوقف الذاتي.

السؤال الرابع: قيل لإثبات وجود العين وتأثيرها قوله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾[الفلق:٥]؟

الجواب: من وجوه عدة:

الأول: **التحليل اللغوي**: الآية تتحدث عن شرّ الحاسد، وليس عن "طاقة العين" أو "إشعاعات خفية"، والفعل "حَسَدَ" جاء بصيغة الفعل الماضي المقرون بـ "إذا"، وهي أداة ظرفية تفيد التحقق والتوقيت، مما يعني أن الحسد

المشار إليه في الآية لا يكون شرّاً إلا إذا تحوَّل إلى فعل حقيقي، وليس مجرد شعور نفسي داخلي.

الفرق بين "الحسد" و"إذا حسد": الحسد بحد ذاته مجرد شعور داخلي بالحقد والرغبة في زوال النعمة، ولكنه لا يشكل خطراً إلا إذا انتقل إلى مرحلة التنفيذ العملي.

مثال توضيحي: شخص يحسد زميله على نجاحه، هذا لا يشكل خطراً، لكن إذا بدأ يكيد له، أو يشوّه سمعته، أو يعطل عمله عمداً، فهذا هو الحسد الذي تحذّر منه الآية.

الثاني: تفسير الحسد كسلوك عدائي وليس كطاقة غيبية:

الحسد هنا لا يشير إلى نظرة سحرية تؤذي المحسود، بل إلى أفعال عدائية قد تصدر عن الحاسد، في القرآن الكريم الحسد ذكر في سياقات عديدة على أنه دافع للشر والسلوك العدائي، وليس كقوة خفية، قال تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُم كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم**﴾[البقرة: ١٠٩]، فهنا الحسد ليس طاقة، بل هو دافع للأفعال العدائية.

وقال تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ [النساء:٥٤]، وأيضاً الحسد مرتبط بالرغبة في زوال النعمة، وليس بإيذاء خارق للطبيعة.

الخلاصة: الآية تحذّر من الشر الذي يصدر من الحاسد عندما يحسد، أي عندما يتخذ خطوات عدائية ضد المحسود، وليس من مجرد مشاعر الحسد أو من "العين الحاسدة".

الثالث: نظرة فلسفية: لماذا لم ينفع "الحسد" في زوال نعمة أعداء المسلمين؟

إذا كان الحسد كما يفهمه بعض الناس قوة غيبية تؤذي الآخرين، فلماذا لم يتسبب حسد المسلمين في زوال قوة أعدائهم اليوم؟

على سبيل المثال، إسرائيل لديها المال والتكنولوجيا والقوة العسكرية، وكثير من المسلمين يحسدونهم عليها، لكن لم يتسبب هذا في زوالهم.

وهذا يثبت أن الحسد ليس قوة غيبية، وإنما هو دافع نفسي يجعل الحاسد نفسه في حالة سلبية، لكنه لا يؤثر ماديًا على المحسود.

الرابع: نفي كتب التفاسير المعتبرة ذلك الزعم:

قال الحاكم الجشمي في تفسيره: "عند الحسد يبتغي الغوائل ويتمنى زوال نعمته ونزول الضرر به"(١).

قال القرطبي في تفسيره: "الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود"(٢).

أي أن الشر المقصود في الآية ليس طاقة خفية، بل هو الشر الناتج عن تصرفات الحاسد ضد المحسود.

قال الزمخشري في تفسيره: "إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه: من بغى الغوائل للمحسود، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسد "(٣).

---

(١) التهذيب في التفسير ج١٠ص ٧٦٠٣.

(٢) تفسير القرطبي ج٢٠ص٥٥٩.

(٣) الكشاف ج٤ص٨٢٢.

قال الطباطبائي في تفسيره : "إذا تلبس بالحسد وعمل بما في نفسه من الحسد بترتيب الأثر عليه"(١).

أي أن الحسد لا يعمل إلا إذا تحول إلى سلوك.

الخلاصة: الآية تشير إلى الحاسد إذا بدأ بالاعتداء أو السعي للإضرار بالمحسود، وليس إلى تأثير غيبي خفي يصدر من عينه.

الخامس: رأي العلم الحديث:

من منظور علمي: لماذا لا يمكن للعين أن تؤذي؟

من منظور فيزيائي: لا يوجد أي دليل علمي على أن العين تطلق طاقة تؤثر على الآخرين.

من منظور طبي: جميع الأمراض التي تُنسب إلى "العين" لها تفسيرات طبية ونفسية، مثل التوتر، والإيحاء الذاتي، والمناعة المنخفضة.

من منظور نفسي: هل يمكن للحسد أن يؤذي؟

بعض الناس يصابون بأمراض نفسية لأنهم يعتقدون أنهم محسودون، لكن هذا لا يعني أن هناك قوة خفية تؤذيهم، بل إنهم ضحايا الإيحاء الذاتي.

نظرية التفسير المفترض (The Attribution Theory): الإنسان يميل إلى تفسير المصائب بشكل يريحه نفسياً، والحسد هو أحد هذه التفسيرات الخاطئة.

الخلاصة: الحسد ليس قوة خفية تخرج من العين، بل هو دافع نفسي قد يدفع الحاسد إلى إيذاء الآخرين بطرق ملموسة، والآية لا تتحدث عن قوة العين

(١) الميزان في تفسير القرآن ج٢٠ص٣٩٣.

الغيبية، بل تحذّر من الشرور التي قد تصدر عن الحاسد عندما يتحرك ضد من يحسده.

التفسير العلمي والنفسي يؤكد أن أي ضرر يُعزى للحسد يمكن تفسيره بأسباب عقلانية بحتة، مثل التوتر، المرض، أو حتى الإيحاء الذاتي.

الخاتمة

من خلال تحليل قصة حي بن يقظان كما وردت في كتاب (مسائل المجبرة عن وسوسة إبليس وسائر الشياطين) للإمام الناصر، يتضح تركيزه على تفنيد القدرات المتخيلة للشيطان، وربط ذلك بمسألة حرية الإنسان ومسؤوليته، يرفض الإمام الناصر القول بالجبر المطلق، مؤكداً على أن الإنسان ليس مُجبراً على اتباع وساوس الشيطان، بل يملك القدرة على الاختيار والتمييز بين الحق والباطل.

وقد استند الإمام الناصر في رفضه للقدرات الخارقة للشيطان على حجج عقلية ونقلية، معتمداً على تفسير دقيق لآيات القرآن الكريم، وعلى فهم عميق للغة العربية وبلاغتها، وقد فند مزاعم القائلين بقدرة إبليس على التأثير في القلوب، والوسوسة، والإغواء، والتحكم في الإنسان، مبيناً أن هذه القدرات لا تختلف عن قدرة الله، مما يخل بالتوحيد ويناقض العدل الإلهي.

يرى الإمام الناصر أن إبليس ليس كائناً مستقلاً يتمتع بقدرات خارقة تمكنه من فرض إرادته على الإنسان، بل هو رمز للهوى المتبع، والانحراف عن الحق، والاقتداء بالباطل، فلا يمكن أن يكون له سلطان على الإنسان إلا بقدر ما ينساق الإنسان طوعاً وراء رغباته وشهواته، ومن هنا فإن مقاومة إبليس لا تكون بالاعتماد على قدرات استثنائية أو حماية إلهية خاصة، بل من خلال التمسك بالدين، والاجتهاد في العمل الصالح، ومجاهدة الهوى.

وبناءً على ما تقدم، يمكن القول إن رؤية الإمام الناصر لإبليس تتسم بالعقلانية والاعتدال، وتنسجم مع مبادئ العدل والتوحيد، وهي رؤية تحث الإنسان على تحمل مسؤوليته في مواجهة التحديات، وتجنب الاستسلام للأوهام والخرافات.

الملحقات

المطلب الأول: صياغة القصة:

يمكن صياغة القصة كما يلي:

بداية الرحلة

في جزيرة نائية، وسط أمواج المحيط الهادرة، عاش غلام صغير وحيدًا، لم يعرف من الدنيا غير زُرقة البحر الممتد، وخضرة الغابات الكثيفة، ورحابة السماء الواسعة، وُلد من أبوين غريبين، ناجيين من سفينة محطمة، لكن الموت خطفهما قبل أن يتم عامه الثالث، تاركًا إياه وحيدًا بين الأشجار والكهوف، يتعلم لغة الطبيعة بصمت.

كانت الوحدة رفيقه الدائمة، والخوف قرينه الليلي، تتناهى إليه أصوات غريبة في الظلام، وزئير حيوانات تفترس، تجعله ينكمش في كهفه، متمنيًا بزوغ الفجر، لكن الفضول كان أقوى من الخوف، يدعوه إلى استكشاف الغابة، وتتبع آثار الحيوانات، ومراقبة حركة الشمس والقمر.

الإدراك الأول

وجود الله

لم يسمع الغلام كلامًا من البشر، لكنه رأى نظامًا بديعًا يسير الكون، الشمس تشرق كل صباح، ثم تغيب في المساء، معلنة نهاية يوم وبداية آخر، الأشجار تنمو شامخة، وتطرح ثمارًا شهية، الحيوانات تهاجم لتأكل، أو تهرب لتنجو بحياتها، البحر يثور عاتيًا، ثم يهدأ وديعًا، كان كل شيء يسير وفق نظام محكم، لا يعرف الفوضى أو العبث.

كان يتساءل في صمت: كيف يسير كل هذا بإحكام؟ من يضبط مسار الشمس والقمر؟ من يجعل البذور تنبت والماء ينزل من السماء؟ من يوزع الأرزاق على المخلوقات؟ أدرك أن هناك قوة أعظم، قوة ليست كالبحر أو الرياح، بل هي من يسير كل شيء، قوة خفية لا تُرى، لكن آثارها جلية في كل مكان، وهكذا، توصل الغلام إلى معرفة وجود الله بفطرته السليمة، إيمانًا خالصًا لم تشوبه شائبة.

الإدراك الثاني

الخير والشر

كان الغلام يراقب الحيوانات بعين فاحصة، يرى كيف ترعى الأم صغارها بحنان، وكيف تحميهم من الخطر، لكنه يرى أيضًا كيف تحاول بعض الحيوانات سرقة طعام غيرها، وكيف تتقاتل على البقاء، كان يشعر بالراحة عندما يرى الرحمة والمساعدة، وبالضيق عندما يرى الظلم والاعتداء، لم يكن يحتاج إلى من يعلمه أن قتل الصغير أو أخذ ما ليس له خطأ، فقد أدرك ذلك بعقله، عرف أن هناك أفعالًا حسنة يحبها، وأخرى قبيحة ينفر منها، وكأن ضميره الصغير يشير إلى الطريق الصحيح.

ذات ليلة، بينما كان جالسًا أمام نيران صغيرة أشعلها ليتقي برد الليل، تساءل: لماذا يوجد الشر في هذا العالم الجميل؟ لماذا تؤذي الحيوانات بعضها البعض؟ هل هناك قوة شريرة تدفعها إلى ذلك؟ كان هذا السؤال يؤرقه، ويزيد من وحدته وحيرته.

الانتقال إلى العالم البشري

رائحة الدخان... وبداية جديدة

في يوم من الأيام، بينما كان يتجول على الشاطئ، شم رائحة غريبة لم يألفها من قبل، تبع الرائحة، فوجد سفينة تقترب من الجزيرة، لم يكن قد رأى بشراً من قبل، لكنه شعر بمزيج من الخوف والفضول، كان الخوف من المجهول يكبله، لكن الشوق إلى لقاء كائن يشبهه كان أقوى، تردد للحظة، ثم رفع ذراعه ولوح، متمنيًا أن يفهموا رسالته الصامتة، رأوه، وأشاروا إليه بالقدوم، صعد على متن قارب صغير أرسلوه، وشعر برعشة تسري في جسده، رعشة الخوف والإثارة، رعشة الدخول إلى عالم جديد.

في الرحلة، سمعهم يتحدثون بلغة غريبة لم يفهمها في البداية، لكنه بدأ يلتقط بعض المعاني من تعابير وجوههم وإشاراتهم، كانوا ينظرون إليه بتعجب وشفقة، وكأنه حيوان غريب اكتشفوه في الغابة.

الوصول إلى اليمن

لغة جديدة... وأسئلة قديمة

وصل إلى اليمن، إلى مدينة تعج بالحياة والضوضاء، بدأ يتعلم اللغة شيئًا فشيئًا، مستمعًا إلى الناس في الأسواق والمساجد، سمعهم يتحدثون عن الله، وعن رسله، وعن الدين، وجد أن ما يقولونه قريب مما استنتجه في الجزيرة، لكن شيئًا واحدًا حيّره: كان الناس يتحدثون عن إبليس، كائن قوي يغوي البشر، يوسوس لهم بالشر، ويدفعهم إلى المعاصي، وقف حائرًا: إن كان الشر أمرًا ينفر منه العقل، فكيف يكون لإبليس هذه القوة؟ هل يجبر الناس على الشر؟ وكيف يرضى الله بوجوده؟

كانت الأسئلة تتزاحم في رأسه، تحركه كالرياح في حقول القمح، ولم يجد من يجيب عليها إجابات شافية، شعر بالحاجة إلى شخص حكيم، شخص يعرف أسرار الكون، شخص يستطيع أن يضيء له الطريق.

الوصول إلى صعدة ومجلس الإمام الناصر

البحث عن الحقيقة... في مجلس العلم

سمع الغلام عن الإمام الناصر أحمد، العالم الحكيم، رباني آل الرسول، وإمام المعقول والمنقول، الفقيه الشجاع الذي لا يخشى قول الحق، والقاضي العادل الذي ينصف المظلوم ويرد المظالم، فرحل إلى مقره بصعدة، متجاوزًا الجبال الوعرة والوديان العميقة، ليصل إلى مجلسه، مجلس العلم والهدى.

كان المكان مليئًا بالعلماء والطلبة، والناس يتحلقون حول الإمام يسألونه عن أمور الدين والعقل والقدر، جلس الغلام في زاوية المجلس، منصتًا بعقله المتعطش للمعرفة، وقلبه الظامئ إلى الحقيقة، شعر وكأنه وجد واحة في الصحراء، وملجأ في العاصفة.

المسائل

السؤال الأول: هل إبليس قادر على إضلال الناس قهراً؟

وقف رجل في المجلس وسأل: يا إمام، كيف يضل إبليس الناس؟ هل يدخل قلوبهم ويجبرهم على المعصية؟

ابتسم الإمام الناصر وقال: لو كان إبليس قادراً على التحكم في القلوب، ألا يجعله ذلك مساوٍ لله؟ أليس الله هو من يملك القلوب ويقلبها كيف يشاء؟

هز الحاضرون رؤوسهم موافقين، لكن الرجل أصرّ قائلاً: ولكن القرآن يقول: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ**﴾[البقرة:٢٦٨]، فكيف يعد ويوسوس إن لم يكن له سلطان؟

أجاب الإمام بهدوء: يعد بالفقر، لكنه لا يجبر أحدًا على شيء، هل سمعت إبليس يومًا يخاطبك بصوت واضح؟ هل وقف أمامك وأمرك بمعصية؟ إن وعده مجرد حديث النفس، وأمره مجرد إغراءها، والقرار في النهاية لك.

ضحك بعض الحاضرين، بينما تأمل الغلام الكلام، فقد كان في جزيرته وحيداً ولم يشعر يومًا بقوة تجبره على فعل الشر، بل كان يختار طريقه بنفسه.

السؤال الثاني: هل الإنسان مجبر على المعصية أم مخيّر؟

قام آخر وقال: يا إمام، هناك من يقول إن الإنسان مجبر على فعل الخير أو الشر، فهل نحن مسيرون أم مخيرون؟

تنهد الإمام الناصر وقال: لو كان الإنسان مجبراً، فلماذا يرسل الله الرسل؟ ولماذا يعاقب الظالمين إن لم يكن لهم اختيار؟ أيعقل أن يعذب الله من لم يخالف أمره؟!

ثم ضرب مثالًا: تخيلوا غلاماً يعيش في جزيرة لم يسمع عن نبي ولا عن دين، هل سيفعل الخير أم الشر؟

تحرك الغلام في مجلسه، فقد كان هو نفسه ذلك الغلام! استمع بإمعان، وكأن الإمام يتحدث إليه مباشرة.

تابع الإمام: سيجد الغلام بعقله أن الرحمة جميلة، والظلم قبيح، سيعلم أن العدل أفضل من الطغيان، وأن الشكر أفضل من الجحود، العقل وحده يكفي للتمييز بين الخير والشر، وهذا من فضل الله على الإنسان.

أحس الغلام بحرارة في صدره، فقد أدرك ذلك بنفسه في جزيرته، وها هو يسمع نفس الفكرة من الإمام، لكن بكلمات أوضح وأعمق.

السؤال الثالث: هل إبليس مسؤول عن كل الشرور؟

سأل أحد الجالسين: ولكن يا إمام، أليس إبليس هو الذي يوقع الناس في الخطايا؟ أليس هو سبب كل شر؟

ضحك الإمام وقال: لو كان إبليس مسؤولًا عن كل شر، فلماذا يعاقب الله القاتل، والزاني، والسارق؟ أليس الأولى أن يعاقب إبليس وحده؟ هذا ظلم لا يرضاه الله لعباده.

ساد الصمت في المجلس، أكمل الإمام: إبليس لا يجبر أحدًا، النفس هي التي تختار، والهوى هو الذي يدفع الإنسان للشر، ألم يقل الله: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾[يوسف:٥٣]؟، إن النفس هي ميدان الصراع، وإبليس مجرد رمز لهواها.

رفع الغلام رأسه متفكراً: إذاً النفس هي التي تدفع للشر، وليس إبليس! هذا يعني أن المسؤولية تقع على عاتقي أنا، وعلي أن أجاهد نفسي لأتغلب على شرها.

السؤال الرابع: هل الله يجبر الناس على الضلال؟

سأل أحد الحاضرين: ولكن هناك من يقول إن الله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فهل يعقل أن الله يخلق إنساناً للضلال ثم يعذبه؟

رد الإمام الناصر: هذا قول باطل؛ لأن الله قال: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[الإسراء:١٥]، كيف يعذب إنساناً لم يبلغه الحق؟ الله عادل لا يظلم أحدًا، ولا يحاسب أحدًا إلا بعد أن يرسل إليه رسولًا يبين له طريق الحق.

ثم نظر إلى الغلام مباشرة وسأله: يا بني، وأنت الذي عشت في جزيرتك، هل كان يمكن أن تعبد الله دون أن يصلك أمره؟

أجاب الغلام بصدق: كنت أعرف أن هناك قوة تحكم الكون، لكني لم أكن أعرف كيف أعبده، ولا ما يرضيها وما يغضبها.

ابتسم الإمام وقال: وهذا هو العدل الإلهي، لا يُحاسَب الإنسان إلا بعد أن تأتيه الحجة. فالله لا يضل أحدًا ابتداءً، بل يضل من أعرض عن الحق بعد أن تبين له.

السؤال الخامس: هل إبليس يملك قوة تفوق البشر؟

قام رجل مسن وقال: ولكن يا إمام، يُقال إن إبليس يرى الناس من حيث لا يرونه، أفلا يجعله ذلك أقوى من البشر؟

أجاب الإمام: نعم، إبليس يرانا، لكن هل يمنعنا من الصلاة؟ هل يستطيع أن يدفع يدك بالقوة كي لا تتصدق؟ إنه يرى مكاننا، لكنه لا يستطيع أن يغير أقدارنا.

ضحك الحاضرون، بينما أضاف الإمام: هو يرى، لكنه لا يقدر، فقط من يتبعه باختياره يقع في حباله، ولو كان إبليس قادراً على إغواء الجميع، فلماذا هناك أنبياء وصالحون؟!

السؤال السادس: هل الشيطان أقوى من النبي؟

سأل شاب في المجلس: إذا كان إبليس يغوي البشر، فهل يمكنه أن يؤثر على الأنبياء أيضاً؟

قال الإمام الناصر بحزم: إبليس ضعيف أمام من يملك الإيمان الخالص، واليقين الصادق، الأنبياء معصومون من الوقوع في المعصية، ومحفوظون من كيد الشيطان، إنما يؤثر على من يتبع هواه، ويسلم قياده لنفسه الأمّارة بالسوء.

السؤال السابع: هل يقدر إبليس على إغواء الإنسان وإضلاله؟

بعد أن استمع الغلام إلى كل تلك الحجج والبراهين، شعر أن هناك شيئًا ما لا يزال غير واضح، ربما لأنه لم يعش بين الناس، ولم يرَ كيف يوسوس الشيطان في صدورهم، رفع الغلام عينيه نحو الإمام الناصر وقال، وبدا عليه التردد: يا إمام، قد فهمت أن إبليس لا يجبرنا على الشر، وأننا نختار طريقنا بأنفسنا، ولكن ما زلت أتساءل، هل يقدر إبليس على إغواء الإنسان وإضلاله حقًا؟ هل لديه تلك القدرة الخفية التي تجعلنا نرى الباطل حقًا، والحق باطلًا؟ هل يستطيع، بتلاعبه ووسوسته، أن يغير مسار حياتنا، رغم إرادتنا؟

وهنا، وكأن الإمام الناصر أراد أن يشرك المجلس كله في البحث عن الإجابة، وجه سؤاله إليهم، بنبرة العالم المتواضع الذي يطلب المعرفة: «أخبرونا: هل يقدر إبليس يغويه ويضله، أم لا يقدر على ذلك؟ فإن قالوا: إنه لا يقدر على أن يضله، لزمهم لنا عجز إبليس وضعفه، وأنه لا يقدر أن يغوي أحداً من الخلق ولا يضله، ورجعوا عن قولهم ودعواهم في إبليس أنه قادر على إضلال الخلق وإغوائهم»، كانت كلمات الإمام بمثابة دعوة إلى التفكير العميق، والبحث عن الحقيقة بأنفسهم.

السؤال الثامن: هل إغواء إبليس للغلام طاعة أم معصية؟

بعد صمت قصير، قطع شاب آخر في المجلس الصمت، وكان يبدو عليه الجدية والتفكير العميق، رفع يده باحترام، وقال: يا إمام، لقد ذكرتم مرارًا الغلام الذي يعيش في الجزيرة، والذي لم يسمع بدين أو شريعة، ولكن لنفترض

أن هذا الغلام واجه إبليس، وأغواه، فهل إغواء إبليس للغلام في هذه الحالة يعتبر طاعة لله أم معصية؟ وكيف يمكن أن نحاسب شخصًا لم يعرف الحق، ولم تصله الرسالة؟ بدا السؤال وكأنه يفتح بابًا إلى منطقة شائكة في الفهم الديني.

يجيب الإمام الناصر بحكمة وتفصيل، وكأنه يرسم لهم خريطة واضحة للطريق، ويميز بين الحق والباطل: «فنقول لهم: أخبرونا حيث خلق الله إبليس للطاعة، أليس عليه الطاعة لله فريضة؟ فإذا قالوا: بلى. قلنا لهم: فأخبرونا عن إضلاله للغلام أهو طاعة لله، أو معصية؟ فإن قالوا: هو طاعة لله، لزمهم – صَغَرَةً أقمِيَاء – أن إبليس مطيع لله عز وجل في إضلال الخلق، وأنه يوم القيامة على طاعة لا على معصية؛ وفي هذا نقض القرآن، والكفر بالرحمن والخروج من الإيمان. وإن قالوا: إن إضلال إبليس للغلام هو معصية الله، عز وجل. لزمهم انه قد ترك ما خلق له واتبع هواه، وخالف خالقه ووجب عذابه بمعصيته، وقالوا بالعدل»، كانت كلمات الإمام بمثابة تذكير بأن المنطق والعقل يجب أن يرافقا الإيمان.

السؤال التاسع: عن كيفية الإغواء للغلام في الجزيرة؟

الآن، بعد أن استمع الغلام إلى كل هذه الحجج والبراهين، شعر أنه بحاجة إلى أن يفهم الأمر بشكل أكثر وضوحًا وتفصيلًا، لقد عاش في عزلة، ولم يرَ كيف يوسوس الشيطان في صدور الناس، وكيف يزين لهم الباطل، قال الغلام، وهو ينظر إلى الإمام بتوق وشغف للمعرفة: يا إمام، أنا لم أرَ إبليس، ولم أسمع صوته، لم أواجه هذا العدو الذي تتحدثون عنه، فكيف يمكن لإبليس أن يغويني أنا؟ كيف يمكن أن يضل غلامًا عاش في عزلة، ولم يعرف شيئًا عن الشر؟ ما هي بالضبط كيفية الإغواء للغلام الذي نشأ في الجزيرة وحيدًا؟ كيف يمكن للشر أن يصل إلى قلب لم يعرف إلا الخير؟

يجيب الإمام، وكأنه يفتح لهم نافذة على عالم الغيب، ويكشف لهم عن بعض أسراره: «ثم نقول لهم: أخبرونا أليس قد قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾[الأعراف: ٢٧]؟ فإذا قالوا: بلى. قلنا لهم: فأخبرونا عن ذلك الغلام الذي في الجزيرة، كيف يغويه إبليس، وكيف يضله، وكيف يضل غيره من جميع الخلق – على أنه ما لزم في واحدٍ لزم في جميع الخلق، إذ القصة واحدة؟ فلا بد لهم أن يقولوا: إنه يبدوا لهم، فيردون على القرآن، ويضلهم على وجه من الوجوه. فإن ادعوا أمراً لا تقبله العقول، ولا تقوم لهم به حجة سقط قولهم؛ إلا أن يدعوا إنه يقدر على الخلق كقدرة الله عز وجل؛ على خلقه! فيوجبوا خالقاً آخر قادراً قوياً مع الله! فيلزمهم الشرك والخروج من فيه الإسلام كافة، لابد لهم من ذلك، أو الرجوع عن الجهل»، كانت كلمات الإمام بمثابة تذكير بأن العقل يجب أن يكون حاضرًا دائمًا في فهمنا للدين.

قدرات إبليس المتخيلة

وهنا، ينتقل الإمام الناصر إلى مرحلة جديدة من الشرح والتوضيح، فيبدأ في تفنيد بعض الأفكار الشائعة حول قدرات إبليس، وكيف أنها تتناقض مع العقل والمنطق والدين، وكيف أنها ترفع من شأن إبليس على حساب الله، وهذا لا يجوز.

• الوعد والتمنية:

يبدأ الإمام حديثه قائلًا: يزعم البعض أن لإبليس قدرة خارقة على الوعد والتمنية، وأنها وسيلة فعالة لإغواء البشر، وأنه قادر على أن يجعلهم يرون السعادة في المعصية، والشقاء في الطاعة، يستندون في ذلك إلى آيات من القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ [البقرة:٢٦٨]، ولكن، لنتساءل بصدق، هل رأيتم يومًا إبليس يقف أمامكم

ويعدكم بالفقر، أو يأمركم بالفحشاء بشكل مباشر؟ ألم تروا أن شيطان الإنس يفعل ذلك أيضًا، بل وأكثر؟ ألم تروا التجار الذين يستغلون الناس، والسياسيين الذين يكذبون ويخادعون؟ فلماذا تحصرون الاتهام في شيطان الجن، وتنسون شياطين الإنس الذين نراهم ونسمعهم ونعرفهم، والذين هم أخطر علينا؟.

ثم يعقب الإمام، بنبرة العالم المحذر: وقد ترتب على هذا القول – أي إثبات قوة وقدرة لإبليس خارقة – مفاسد عظيمة، أولها: فساد التوحيد! فلو كان لإبليس من القوة والقدرة ودقة التدبير ما يعجز الخلق عن إدراك كنهه، للزم من ذلك القول بأن لا فرق بين قوة الله وقدرته ولطائف صنعه، وبين قدرة إبليس ودقة تدبيره! وهذا يعني التسوية بين الخالق، الذي هو الواحد الفرد الذي ليس كمثله شيء، وبين مخلوق زُعم له من القدرة ما يجعله نِدًّا لله! وهذا يفسد التوحيد، ويجعلنا نعبد إلهين، إله الخير وإله الشر، وهذا ما لا يقبله عقل سليم!.

• الوسوسة:

ثم ينتقل الإمام إلى نقطة أخرى، قائلًا: ويستدلون أيضًا بقول الله تعالى: ﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾[الناس:٦]، ولكن، هل فهمتم معنى الوسوسة حقًا؟ هل هي صوت تسمعونه في أذنكم، أم هي مجرد أفكار وخواطر تأتيكم في قلوبكم، وتزين لكم الباطل، وتثبطكم عن الخير؟ إذا كنت تصلي، ثم خطر ببالك خاطر، فهل أحد يكلمك في صلاتك بشكل مادي وملموس؟ الوسوسة شيء لطيف خفي، كما تدّعون في شأن إبليس، أما أصوات بني آدم وإشغالهم للمصلي فهي كثيرة، لكن لا علاقة لها بمعنى الوسوسة المذكورة في الآية، والتي هي من فعل النفس الأمارة بالسوء.

ثم يستفيض الإمام في شرح حقيقة الوسوسة في اللغة العربية، وكيف أنها تعني ما يخطر على قلب الآدمي من ذِكر الجنة والناس، لا أنهم يوسوسون في صلاته بشكل مادي وملموس.

• الإغواء:

بعد ذلك، يتطرق الإمام إلى مفهوم الإغواء، قائلًا: أما الإغواء، فإنه يتعلق بهوى النفس، الذي يسير مع شيطان بني آدم أيضًا، فالهوى نفسه يعد شيطانًا لأنه يرضي الشياطين، ويجعلنا نتبع شهواتنا وملذاتنا دون تفكير أو تدبر، والدليل على ذلك قول موسى عليه السلام بعد أن وكز القبطي فقتله: ﴿**هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾[القصص:١٥]، أي أن هذا الفعل من جنس عمل الشيطان، وليس أن الشيطَان هو الذي ارتكب الفعل نفسه بشكل مباشر.

ثم يشرح الإمام بالتفصيل كيف أن تحميل إبليس مسؤولية كل فعل شرير يرفع المسؤولية عن الإنسان، ويتناقض مع العدل الإلهي، ويجعلنا نتنصل من أخطائنا.

• الأعوان:

ثم يسأل الإمام، بنبرة تحمل تحديًا: ماذا عن أعوان إبليس؟ هل هم مجبرون على الإضلال، أم مخيرون؟ فإن قال المخالفون إن لإبليس أعواناً يفرقهم في البلدان ليضلوا الناس، فالسؤال هنا: هل هؤلاء الأتباع مجبورون على الإضلال أم مخيرون؟ إن قالوا إنهم مجبورون، فهذا يستلزم أن البشر بلا حول ولا قوة أمام تسلط إبليس وأعوانه، وهذا يتناقض مع أساسيات ديننا، الذي يقوم على حرية الاختيار والمسؤولية الفردية.

• أن له منقار:

يبتسم الإمام، وكأنه يسخر من هذه الخرافات: وصل الأمر ببعضهم أن زعموا أن له منقارًا طويلاً، يدخله في أذن الإنسان حتى يصل إلى قلبه، فيوسوس له بذلك! هل يعقل هذا؟ هل يمكن أن يدخل شيء في أذنك دون أن تشعر به؟ هذا محال، لأن الله جعل لنا حواسًا ندرك بها ما يحيط بنا، ونميز بين ما ينفعنا وما يضرنا. فهل نصدق هذه الخرافات، أم نصدق عقولنا وحواسنا؟.

• العلم بالغيب:

يرفع الإمام صوته، وكأنه يريد أن يحذرهم من خطر عظيم: وصل بهم الضلال أن زعم بعض الحشوية المنحرفين عن الحق، أن إبليس ادعى العلم بالغيب! قالوا إنه قال: «ما حمل بمحمول قط إلا وأنا أعلم متى حمل به...». ألا يعلم هؤلاء أن هذا القول كفر صريح بالله تعالى، وتكذيب لكتابه العزيز؟ ألا يعلمون أن الغيب لله وحده، ولا يعلمه أحد من خلقه؟ فكيف يجرؤون على مساواة إبليس بالله؟

• الظهور والتحول الشكلي:

يتناول الإمام قضية أخرى، قائلًا: ويروون أن إبليس ظهر لقريش في صورة سراقة يوم بدر، إن كان هذا صحيحًا، فإما أن يكون ما رووه أصدق من قول الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾[الأعراف:٢٧]، وإما أن يكون أحد القولين حقّاً والآخر باطلاً، ولا بد من ترجيح أحدهما، فهل نترك كلام الله، ونصدق هذه الخرافات؟ وهل نرفع من شأن إبليس، ونجعله قادرًا على التشكل والتحول، بينما الله هو القادر على كل شيء؟.

• الجريان في الدم:

يهز الإمام رأسه قائلًا: ويقولون إن إبليس يجري في دم الإنسان، هذا خبر لم يأت في كتاب ولا سنة صحيحة، ولا أجمعت عليه الأمة، فكيف نصدق هذا الكلام، ولا يوجد عليه دليل؟.

• المحادثة:

يوضح الإمام الناصر: ومن الحجة على من خالفنا أننا وجدناهم جميعًا، إذا تحدثوا عن الجن، لم يذكروا عنهم إلا كلامًا نطقوا به أو أخبارًا نقلوها عنهم، وليس وسوسة كما ادعوا، فقد رووا - مثلًا - حديث خفاف أيام مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وزعموا أن له صديقًا من الجن كان يخبره بمبعث النبي، وكان يأتيه كل ليلة... فهل نصدق الوسوسة أم المشافهة؟ هل نؤمن بقدرة إبليس على التأثير في قلوبنا، أم نؤمن بأن الجن يتحدثون إلينا بشكل مباشر؟.

• التأثير على القلوب:

يرد الإمام: ثم إنهم يقولون إن الله جعل لإبليس القدرة على التأثير على القلوب، ولكن هذا لا يجوز؛ لأن الله وحده هو الذي يملك القلوب ويصرفها كيف يشاء، قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [الأنفال:٢٤]، فهل نساوي بين إبليس والله؟ وهل نعطي لإبليس القدرة التي لا يملكها إلا الله؟.

• التأثير في النسيان:

يوضح الإمام: ويقولون إنه يؤثر في النسيان. فهل نسي موسى الحوت بسبب إبليس، أم بسبب آخر؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ**

سُلْطَانٌ﴾[الحجر:٤٢]؟ فكيف يكون لإبليس سلطان على عباد الله، ويجعلهم ينسون ما ينفعهم؟.

• المشاركة في الأموال:

يشرح الإمام قائلًا: أما المشاركة في الأموال فهي ليست مشاركة حسية كالبشر، بل معنوية، وتتمثل في الأموال بأخذها بغير حق كالربا، والسرقة، أو إنفاقها في المعاصي، والأولاد بإنجابهم من حرام كأولاد الزنا، أو تربيتهم على الضلال، فطاعة الشيطان في المعاصي تجعل الإنسان شريكًا له في عواقبها.

• الملازمة كقرين:

يرد الإمام: ثم إنهم يقولون إن لكل إنسان قرينًا من الشياطين! فماذا يفعل هذا القرين بعد موت الإنسان؟ هل يبقى عاطلًا عن العمل؟ وهل خلق الله الشياطين للإغواء فقط، أم للعبادة أيضًا؟.

• عَقد إبليس على قافية الرأس:

يبتسم الإمام قائلًا: ويروون أن إبليس يعقد على قافية الرأس... هذا كلام لا يعقل! هل يمكن لأحد أن يعقد عليك وأنت لا تشعر؟ وهل هذا من الدين، أم من الخرافات؟.

• التأثير ساعة الولادة:

يوضح الإمام: ويروون أن الشيطان يؤثر ساعة الولادة... هذه أخبار مكذوبة لا تصح، وتتنافى مع عدل الله ورحمته.

• التأثير في التثاؤب:

يتساءل الإمام: ويقولون إن التثاؤب من الشيطان... فماذا يفعل الطفل الذي يتثاءب؟ هل هو آثم؟ وهل يجب علينا أن نقاوم التثاؤب دائمًا، حتى لو كان هذا ضد طبيعتنا؟!.

• البيات على الخيشوم:

يهز الإمام رأسه قائلًا: ويقولون إن الشيطان يبيت على الخيشوم... كيف يمكننا أن نتجنب هذا؟ وكيف يمكن لطفل صغير أن يفعل ذلك؟ وهل هذا من الدين، أم من الخرافات؟.

• التأثير في الأذن:

يقول الإمام: ويروون أنه يبول في الأذن... هذه رواية لا تصح، وتتنافى مع العقل والمنطق.

• التأثير في العلاقة الزوجية:

يوضح الإمام: ويروون أنه يؤثر في العلاقة الزوجية... هذا كلام غير معقول، ويجعل الشيطان شريكًا لنا في حياتنا الزوجية، وهذا ما لا يقبله عقل سليم ولا يقره الذكر الحكيم.

خاتمة القصة

بداية رحلة جديدة... نحو العلم واليقين

كان الغلام ينظر إلى الإمام بإعجاب، فقد وجد في كلماته كل ما أدركه في جزيرته، لكن بشكل أكثر وضوحًا وعمقاً، شعر وكأنه وجد ضالته، ووصل إلى بر الأمان.

بعد انتهاء المجلس، اقترب الغلام من الإمام وقال: يا إمام، لقد عشت وحدي في جزيرة سنوات، وتعلمت من الطبيعة، لكني أجد كل ما عرفته في كلامك، كأنني كنت أبحث عن الحقيقة ووجدتها هنا. لقد أضأت لي الطريق، وكشفت لي عن الحقائق التي كنت أجهلها.

ابتسم الإمام الناصر وقال: وهذه هي الفطرة يا بني، الله خلق الإنسان ليبحث عن الحق، ومن طلبه بصدق، وجده، فالعقل نور يضيء للإنسان طريقه، والقلب بوصلة توجهه نحو الخير، فاستمسك بهما، ولا تضل بعد أن هداك الله.

لم يقرر الغلام البقاء في مجلس الإمام على الفور، بل طلب منه الإذن بالبقاء لبعض الوقت، يتعلم ويستزيد من العلم، أراد أن يفهم كل شيء بالتفصيل، وأن يربط بين ما تعلمه في الجزيرة وبين ما يسمعه من الإمام، كان يعلم أن رحلته لم تنته بعد، وأن أمامه الكثير ليكتشفه ويتعلمه.

بعد بضعة أشهر، وبعد أن استوعب الكثير من العلم والمعرفة، قرر الغلام أن يسافر إلى مدن أخرى، وأن يلتقي بعلماء آخرين، وأن يرى المزيد من العالم، أراد أن يختبر ما تعلمه، وأن يتأكد من أن طريقه هو الطريق الصحيح، لكنه وعد الإمام بأنه سيعود إليه في النهاية، ليشاركه علمه ومعرفته، وليخدم الدين والوطن، لقد كان الغلام يدرك أن العلم ليس غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة لخدمة الإنسانية، ونشر العدل والمحبة في العالم. لقد كان مصممًا على أن يجعل من نفسه أداة للخير، وأن يكون نورًا يضيء للآخرين طريقهم.

وهكذا، انطلق الغلام في رحلة جديدة، رحلة العلم واليقين، رحلة البحث عن الحقيقة المطلقة، رحلة بدأت في جزيرة نائية، ووصلت إلى مجلس الإمام الناصر أحمد بن الهادي، ثم انطلقت إلى آفاق أرحب، نحو مستقبل مشرق.

المطلب الثاني: نماذج من المخطوط:

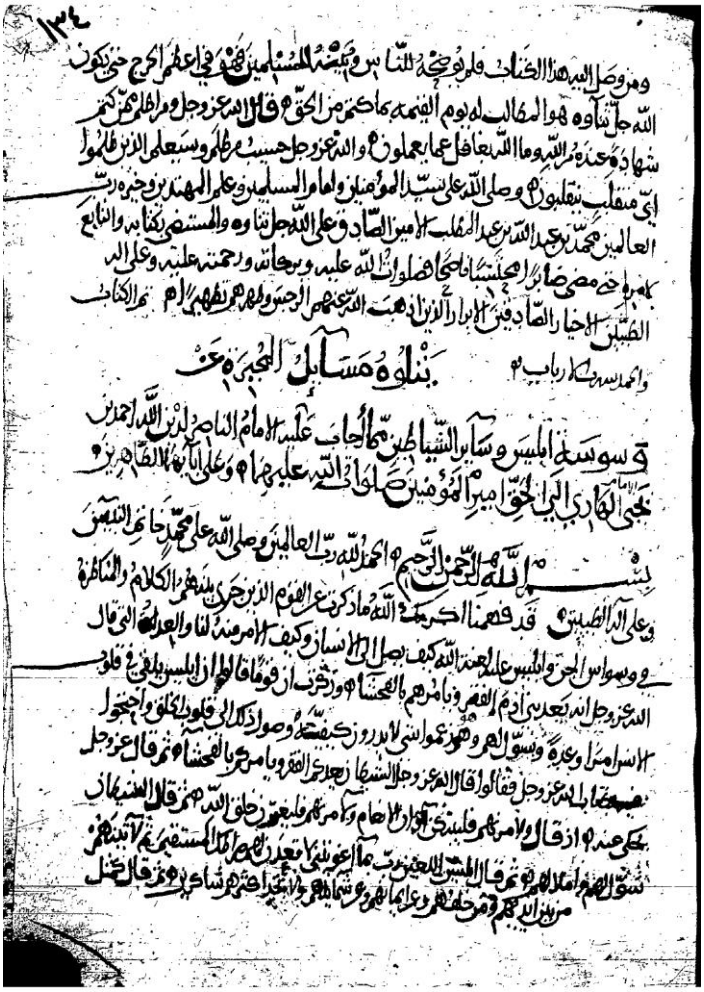

البداية

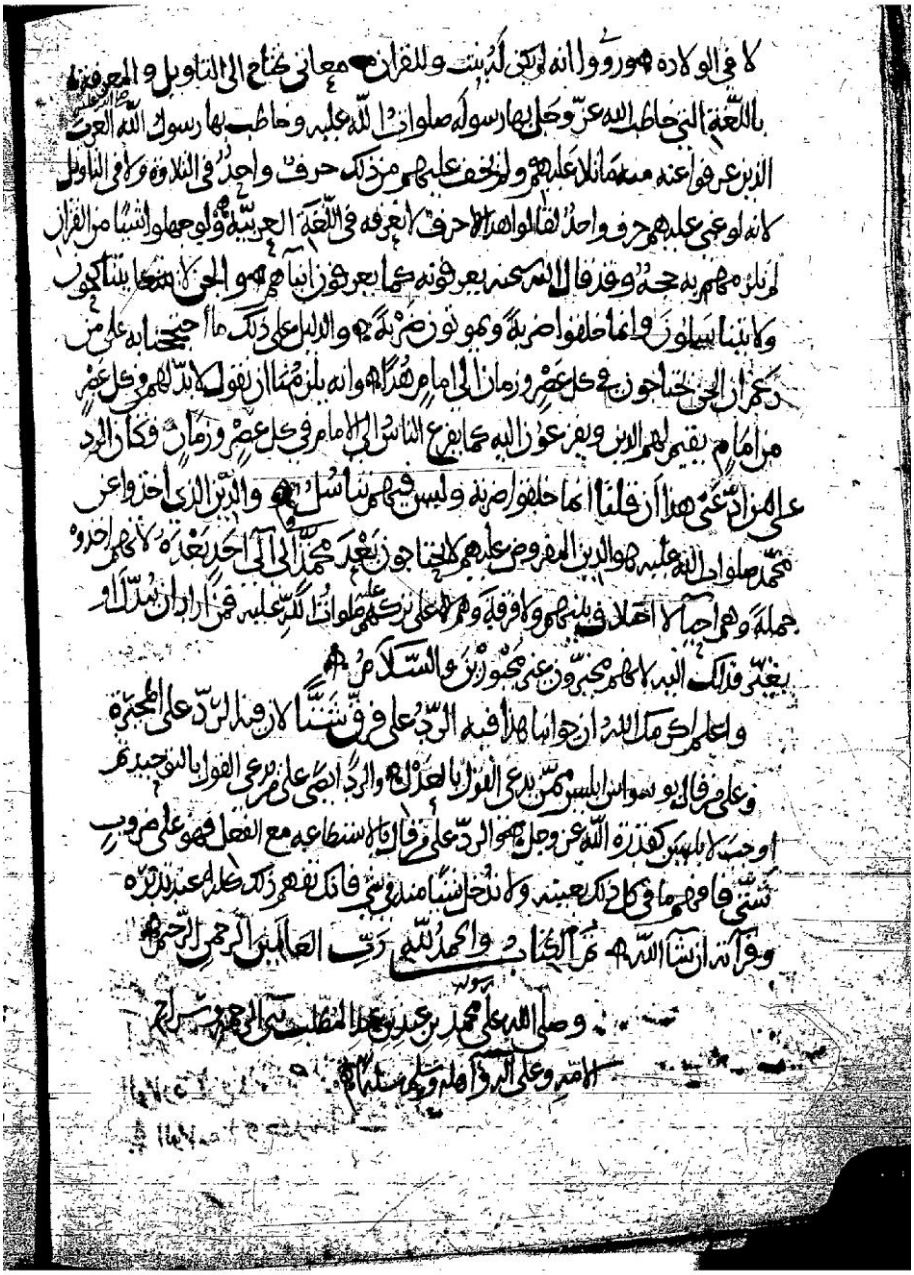

النهاية

فهرس المحتويات

المقدمة ٥

المبحث الأول: حي بن يقظان في التاريخ الفلسفي ٨

المطلب الأول: التسمية: ٨

المطلب الثاني: المضمون: ١

المطلب الثالث: الأفكار: ٤

المطلب الرابع: الخلاصة: ٩

المبحث الثاني: حي بن يقظان عند الإمام الناصر ١٢

المطلب الأول: المضمون: ١٣

المطلب الثاني: الأفكار: ١٣

المبحث الثالث: السحر وحقيقته.....٥٠

المطلب الأول: مفهوم السحر وتاريخه: ٥٠

المطلب الثاني: حقيقة السحر: ٥٣

المطلب الثالث: سؤال وجواب عن السحر: ٦٣

المبحث الرابع: العين وحقيقتها ٧٨

المطلب الأول: مفهوم وتاريخ العين: ٧٩

المطلب الثاني: حقيقة العين: ٨٢

المطلب الثالث: سؤال وجواب عن العين: ٩٠

الخاتمة ٩٧

الملحقات.....٩٩

المطلب الأول: صياغة القصة: ٩٩

المطلب الثاني: نماذج من المخطوط: ١١٦

فهرس المحتويات ١١٨